سورة الضحى

فوائدها وخصائصها عند النبيّ وأهل بيته

الأستاذ عبد الوهاب حسين

دار الثقافة


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



فوائدها وخصائصها عند النبي وأهل بيته

للأستاذ عبد الوهاب حسين

دار المحجة البيضاء

دار الثقافة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م



مملكة البحرين ـ ص.ب: ٢٨٦٥٠ ـ تليفون: ١٧٧٠١٨٧٤ ـ فاكس: ١٧٧٠١٩٣٣

Email: THAKAJENAN@Maktoob.com



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com

سورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾[الضحى: ١-١١].

محاور البحث الرئيسية في السورة الشريفة المباركة:

تتألف السورة الشريفة المباركة من أربعة محاور رئيسية.. وهي كالتالي:

المحور الأول: القسم بآيتين كونيتين هما: الليل.. والنهار.

المحور الثاني: تطمين الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وتسليته.

المحور الثالث: إقامة الدليل على الرعاية الإلهية للرسول الأعظم الأكرم ﷺ، وبيان فضل الله العظيم عليه.

المحور الرابع: توصيات ربانية للرسول الأعظم الأكرم ﷺ ولأتباعه إلى يوم القيامة.

سبب النزول

قيل: انقطع الوحي عن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ أياماً، فقال المشركون: إن محمداً قد تركه ربه، وأن الناموس وهو الوحي قد أبغضه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه، فنزلت السورة.

ومن الملاحظ بوضوح: إن السورة الشريفة المباركة، تزخر بالفيض العظيم من المحبة.. والود.. والرحمة.. من الله ذي الجلال والإكرام، على عبده.. وحبيبه.. ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وفيها تسلية وترويح إلى نفسه الطاهرة الشريفة الزاكية، وتبعث اليقين في قلبه الطاهر، وتبعث الأمل والطمأنينة في نفسه المقدسة.

وقيل: لما نزلت هذه السورة الشريفة المباركة، قال

الرسول الأعظم ﷺ لجبرائيل ﵇: ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبرائيل ﵇: وأنا كنت أشد شوقاً، ولكني عبد مأمور، وما نتنزل إلا بأمر ربك.

مدة انقطاع الوحي

قيل: ليلتان أو ثلاث ليال.

وقيل: اثنا عشر يوماً.

وقيل: خمسة عشر يوماً.

وقيل: تسعة عشر يوماً.

وقيل: خمسة وعشرون يوماً.

وقيل: أربعون يوماً.

الدروس التي نستفيدها من سبب النزول، وهي ثلاثة:

الدرس الأول: يتعلق بالرسول الأعظم الأكرم ﷺ، وفيه نقاط عدة.. وهي كالتالي:

النقطة الأولى: تربية الشوق لدى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ للوحي، وتعميق الشعور لديه بالحاجة إليه، بوصفه نور الله المقدس لهداية الإنسان في ظلمات الحياة

ومتاهاتها وضلالها، وزاد المواجهة عنده لقوى الظلم والظلام والتخلف والفساد في الأرض، وعامل التثبيت والقوة الذي يربطه بالله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ورسول المحبوب ذي الجلال والإكرام الذي يأتيه بالهدى والنور والبشرى من المحبوب معشوق القلب وغاية الطريق، ومعراج القرب إليه سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علوا كبيراً.

النقطة الثانية: تربية اليقين لدى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بالوحي والرسالة ومكانته عند ربه حتى يبلغ غاية اليقين ومنتهاه، بحيث لا يتأثر يقينه بتتابع الوحي أو انقطاعه لفترة من الزمن طالت أم قصرت، وكان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ من قبل أن يظهر له جبرائيل عليه السلام بالوحي والرسالة، يرى ويعاين من دلائل النبوة الشيء الكثير، فكان ﷺ إذا مر في طريق، لا يمر بشجر ولا بحجر إلا سلم عليه.. فقال: السلام عليك يا رسول الله، وكان لا يرى الرؤيا في المنام، إلا جاءت واضحة مثل وضوح فلق الصبح، ثم نزل عليه جبرائيل عليه السلام بالوحي والرسالة وهو في غار حراء، حيث حبب إليه الخلاء هناك للعبادة قبل الوحي والرسالة بزمن طويل، وكان يشاركه في الخلوة ابن عمه علي ابن أبي طالب عليه السلام، يقتدي به ويتعلم منه، وكان نزول

جبرائيل عليه السلام عليه بالوحي والرسالة في يوم السابع والعشرين من رجب، وله من العمر أربعون سنة، وكانت الكتب السماوية قد بشرت به قبل البعثة، وكان اليهود يدرسون في كتبهم ذكر الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، ويعلمون الأولاد صفته واسمه ومكان هجرته المدينة المنورة، ولم يشك الرسول الأعظم الأكرم ﷺ لحظة في الوحي منذ نزل عليه.

ونستفيد من ذلك: بأن القيادات ينبغي لها أن تكون على يقين من أمرها، وأن تمتلك رؤية واضحة في منهج عملها، وفيما تسعى إليه من غايات وأهداف ومقاصد، وما تتبعه من تكتيك، وما تستخدمه من أساليب وأدوات ووسائل، وأن لا تتأثر قراراتها ومواقفها بالطوارىء من الأمور الآنية والمؤثرات النفسية المفزعة والمفرحة، وأن لا تتأثر بأراجيف وأباطيل أصحاب المشاريع المضادة الذين يسعون لإزعاج المصلحين وإيذائهم وإرباك خططهم وأنشطتهم الإصلاحية على الساحة الإسلامية والوطنية العامة والخاصة، فذلك هو السبيل الوحيد للتقدم والنجاح في تحقيق الأهداف، والوقوف بصلابة في وجه الأعداء وقمع مخططاتهم الشيطانية الخبيثة، وتقييدهم بأغلال الحق والصدق والعدل، فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، فلا يستطيعون مضياً ولا هم ينصرون.

النقطة الثالثة: تعليم الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وتفهيمه، بأن جبرائيل عليه السلام ما هو إلا مجرد عبد لله ورسوله ينفذ ما يأمره الله جل جلاله به.. وليس بأكثر من ذلك، وأن ليس له في الأمر من شيء، وأن الأمر كله بيد الله الأول والآخر والظاهر والباطن.. وهو أرحم الراحمين.

ونستفيد من ذلك: بأن نقيم الأمور في الحياة تقييماً موضوعياً، وأن نحسن التقييم والتدقيق في الأمور، فلا نبالغ في الأشياء خاصة في الأمور التي تتعلق بالقضايا الجوهرية والمصيرية في حياة الإنسان، وأن لا نقلل من شأنها، وإنما نضعها في مكانها الفعلي الطبيعي الصحيح، وأن نعطيها حقها بدون زيادة ولا نقصان، وأن نتجنب تحويل الوسائل إلى غايات، ونتجنب تحويل ما ليس مهم وجعله مهماً، أو تحويل ما هو بمهم وجعله ليس مهماً، بسبب الجهل أو بسبب الخيانة وضعف النفس والإرادة أو غير ذلك، فهذه كلها من الإشكالات المهمة التي يقع فيها الكثير من الناس، وتفسد عليهم الكثير من شؤون حياتهم وحياة الآخرين، وتؤدي إلى تخلف الأوضاع وضياع الحق والحقوق، ولهذا ينبغي لنا الالتفات إليها جيداً.. والاهتمام بها كثيراً، وعدم إهمالها خاصة في القضايا الرئيسية الجوهرية والمصيرية.

النقطة الرابعة: تقوية العزم والإرادة لدى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ليحمل الرسالة المقدسة ويؤدي الأمانة الإنسانية الربانية العظيمة، على أحسن وأكمل وجه يرضاه الرب جل وعلا، ويخدم المصالح الإنسانية العليا، وتقوية قلبه الشريف الطاهر المبارك بالشوق إلى الناموس الأعظم مصدر النور والهداية، وبالشوق المتلاطم الأمواج في بحر العشق الطافح إلى معدن الجمال والعظمة.

نعم.. تقوية قلبه الطاهر الشريف المبارك، وتقوية العزم والإرادة لديه، لمواجهة قوى البغي والظلم والظلام والتخلف في الأرض، وكشف أباطيلهم الزائفة الخادعة، وإبطال الأراجيف الهدامة لأصحاب المشاريع المضادة والطوابير الخلفية والأمامية، ودحر مخططاتهم الشيطانية الخبيثة، وتعريتها أمام الناس والباحثين عن الحقيقة، تحت ضوء الشمس الساطع في واضح النهار، وليس في ظلام الليل الدامس، أو من وراء الستر والحجاب، ثم قيادة الناس والواقع وحملهم على سفن النجاة، في بحر الحياة المتلاطم، بعيد الغور والغاية، على منهج الطاعة والعبودية للحق الواحد القهار، سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون، على بصيرة من الأمر.. كل الأمر، لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يجهل بحقيقته شيء، يفعل ذلك كله من أجل

الراحة والرفاهة والتقدم والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة للناس جميعاً بدون تمييز بينهم و﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الاحزاب: ٢٤] وهذا لعمري هو غاية المنى لكل إنسان عاقل شريف بصير بواقع الوجود والحياة، وليس وراء ذلك من سبيل يطلبه عاقل شريف.. كائن ما كان. ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

الدرس الثاني ـ يتعلق بالمؤمنين: في توقف الوحي وانقطاعه لفترة قصيرة من الزمن تربية لوعي المؤمنين، وامتحان اليقين لديهم بالوحي وسائر الأمور في الدين والعمل، بحيث لا يتأثر يقينهم، ولا تتأثر مواقفهم الإيمانية في الحياة، مثل المواقف الجهادية، ومواقفهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواقفهم في الدعوة إلى الله رب العباد، ومواقفهم في المطالبة بالحقوق المشروعة العامة للناس في الأرض، لا تتأثر مواقفهم تلك.. وغيرها من مواقفهم المبدئية في الحياة، لا تتأثر بالتقلبات.. وبالأمور الآنية غير الجوهرية التي تطفو على الساحة بقصد أو بغير قصد، ولا تتأثر بالضغوط والعوامل النفسية الذاتية غير الموضوعية، ولا بالعوامل غير الواقعية الداخلية أو

الخارجية، ولا يصرفهم شيء أو يقف في وجه غاياتهم وأهدافهم ومقاصدهم المشروعة والجادة جداً والمهمة في الحياة، شيء من أعراض الدنيا وتحدياتها، فشعارهم الله أكبر.. وهم ماضون على منهجه الواضح المستقيم، ويشقون طريقهم في الحياة إلى الأمام بثبات وخطى واثقة، بدون تردد ولا تراجع، على بصيرة من أمرهم، يرهبون بذلك أعداء الله ناصرهم جل جلاله، وأعداء الحق والعدل والخير والإنسانية.

الدرس الثالث ـ يتعلق بالمشركين: حيث يلفت انقطاع الوحي نظرهم لظاهرة الوحي ويدفعهم للتفكير الذاتي فيها، من جهة التتابع ووحدة المضمون في ذات الرسالة الواحدة، ومع غيرها من الرسالات السماوية التي سبقتها، فتتاح لهم بذلك فرصة أفضل لتقييم ظاهرة الوحي تقييماً علمياً موضوعياً، فيقيم الحجة عليهم بذلك من داخل أنفسهم ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤] وذلك حين يجحدون، ولم يخفِ الرسول الأعظم الأكرم ﷺ خبر توقف الوحي، وإنما أخرجه للناس، مما يدل على صدق دعواه، وصدقه وشفافيته مع الناس، ولأنه واثق من نفسه، وواثق في ربه، ولديه القدرة على مواجهة القضايا والمشاكل، وحلها بموضوعية وحكمة ونزاهة، وأنه ليس في حاجة لإخفاء

الحقائق والمواقف التي يؤمن بها، لأنه قادر على أن يدافع عنها، لأنها حق واضح، وعدل صريح، وصدق أكيد، ومنهجه في الحياة واضح لا يخفيه، لأنه يريد للناس أن يعرفوه ويدرسوه ويقيموه ويحكموا عليه، ليهتدوا به إلى الحق والعدل والخير والسعادة، لأنه كفيل بذلك، ويحمل الدليل على ذلك في نفسه، ولا يحتاج لعوامل خارجية عنه للتسويق إليه، فلا يريد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، أن يعتمد على مكانته الحقيقية أو المصطنعة للترويج لأفكاره ودعوته ومنهجه في الحياة، بعيداً عما عليه المنهج في نفسه، فالمنهج ليس في حاجة إلى ذلك، فالمنهج ليس ضعيفاً في نفسه بحيث يحتاج إلى العوامل الخارجية الغريبة عنه للترويج إليه والدلالة عليه، وإنما هو قوي في نفسه، ويحمل دليل صدقه في ذاته، لهذا أخرج الرسول الأعظم الأكرم ﷺ خبر توقف الوحي، ليلفت نظر المكذبين به إلى دينه كي يتأملوه ويتبصروا فيه، وهو واثق بأن الحق معه، وسوف يبصره كل باحث عنه.. جاد في طلبه، وهذا ما يريد أن يقوله للناس.. ويبلغهم به.

فائدتان مهمتان

نستوحي من السورة الشريفة المباركة فائدتين مهمتين لنا في حياتنا التربوية والجهادية.. وهما التالي:

الفائدة الأولى ـ التربية والإصلاح عن طريق الصدمة:
فقد صدم توقف الوحي المشركين والموحدين معاً، وحرك المياه الراكدة في حركة تفكيرهم وضمائرهم، لكي يكتشفوا ما هو أبعد من نظرهم قبل الصدمة، ويتحركوا من أجل الوصول إليه بحيوية وهمة، وقد استخدم الرب جل وعلا أسلوب الصدمة في مناسبات عديدة لتربية الأمم وهدايتهم وإصلاحهم، منها: بقرة صالح عليه السلام، وعصا موسى بن عمران عليه السلام، وولادة عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب، ورحلتا الإسراء والمعراج للرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وسلم، بل استخدم الرب عز وجل أسلوب الصدمة حتى مع الأنبياء عليهم السلام، كما هو الحال مع نبي الله يونس عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ـ (قومه) ـ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ـ (فابتلعه الحوت) ـ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

وكما هو الحال مع نبي الله أرميا عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وكذلك مع موسى بن عمران عليه السلام، الذي تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، فخر موسى عليه السلام ميتاً، ثم أحياه الله تعالى، ليتعلم بأنه غير قادر على رؤية الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وغير بعيد عن هذا الباب ما تعلمه الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله من توقف الوحي لفترة قصيرة من الزمن، ليتعلم ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمه إياه من هذا الموقف،

وقد أوضحت بعض أوجه الحكمة من توقف الوحي بالنسبة للرسول الأعظم الأكرم ﷺ فيما سبق من البحث، وسوف ينكشف المزيد منها في مستقبل البحث بتوفيق من الله السميع البصير الحنان المنان الرازق الغياث القادر القريب الكافي كاشف الضر الباسط الناصر الوهاب الواسع الهادي النور الودود الجواد الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علوا كبيراً.

الفائدة الثانية ـ التربية والإصلاح عن طريق الخطوات السلبية: وتتمثل في موضوع بحثنا في توقف الوحي، وقد اتضحت في البحث بعض أوجه الحكمة من ذلك، ولهذه الممارسة أو السلوك في التربية والإصلاح دلالتان رئيسيتان.. هما:

الدلالة الأولى: أهمية تنوع الأساليب والوسائل والأدوات في التربية والإصلاح والتغيير في المجتمع، وعدم الجمود على أسلوب واحد في العمل الرسالي وفي كل حركة إصلاح أو تغيير في المجتمع.

الدلالة الثانية: ضرورة المرونة والتجديد في البحث عن أفضل الوسائل والأساليب والأدوات لتحقيق أهداف الرسالة وخدمة أغراضها، والشجاعة في الممارسة وتوظيف الوسائل

والأساليب والأدوات الجديدة بعد حصول القناعة بها، وعدم الخوف من الجديد والجمود على المألوف منها، وهذا من لوازم القيادة الناجحة، ودليل على أمانتها في تحمل المسؤولية، وتحليها بشرف القيادة وبالشجاعة الأدبية التي يجب أن تتحلى بها كل قيادة في الأرض، وخاصة القيادات الدينية التي تسير على خط السماء النوراني العظيم.

وسوف أذكر المزيد عن هذا الموضع في مستقبل البحث في السورة الشريفة المباركة.

محاور البحث الرئيسية في السورة الشريفة المباركة

المحور الأول
القسم بآيتين كونيتين هما: الليل.. والنهار

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٢]

معاني المفردات في الآيتين الشريفتين المباركتين:

وَالضُّحَى: صدر النهار حتى ترتفع الشمس.

وقيل: أريد بالضحى النهار كله، بدليل مقابلته بالليل.

سَجَى: سكن وهدأ.

يقال ليل ساج: إذا سكنت ريحه واشتدت ظلمته.

ويقال بحر ساج: إذا سكنت أمواجه.

ويقال للميت الملفوف بالكفن: مسجى.

والواو في الآيتين الشريفتين المباركتين: للقسم.

وسوف نبحث القسم بالليل.. والنهار في الآيتين بالتفصيل التالي:

القسم الأول ـ القسم بالنهار

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾.

الله جل جلاله يقسم في هذه الآية الشريفة المباركة بالضحى:

أي صدر النهار أو أوله، حين يرتفع قرص الشمس في كبد السماء ويغمر نورها الأرض، وهو أفضل ساعات النهار، ويوصف بشباب النهار، لأنه أفضل وقت للعمل والسعي والحركة في الأمور وقضاء الحوائج، حيث تكون روح الإنسان وجسده في هذا الوقت بعد الراحة والاسترخاء والنوم في الليل، وبسبب إشراق الشمس ونورها وما تبعثه من الحيوية في الجسم والنفس، وما تبعثه في النفس من الشعور بالجمال والأمل والتفاؤل، تكون روح الإنسان وجسده مستعدين بحق لممارسة النشاط والعمل والسعي لقضاء الحوائج، والحركة بقوة وأمل وتفاؤل في الحياة.

إذن القسم بالضحى: هو قسم بالنور وضوء الشمس،

وبالحركة والعمل والسعي في الحياة من أجل البناء والتعمير والتطوير.

سؤال مهم في البحث: لماذا خص الله جل جلاله وقت الضحى بالقسم ؟

الجواب: وفيه نقاط عدة.. منها:

النقطة الأولى: قيل بأن المراد بالضحى النهار كله، بدليل مقابلته بالليل، وإنما عبر عن النهار بالضحى لأن الضحى صدر النهار أو شباب النهار كما ذكرت قبل قليل، وبالتالي فإن البحث ينتقل إلى البحث في النهار مقابل الليل، وهما آيتان عظيمتان من آيات الله العظام.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

لهاتين الآيتين ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ دلالتهما على الله الخالق البديع وصفاته، وعلى اليوم الآخر والطريق إلى الله رب العالمين. وقد أوضحت ذلك بالتفصيل في بحث سابق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا

وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]

خصائص الليل والنهار

ولكل من الليل والنهار- كآيتين خصائص مهمة في الحياة: تجعل منهما آيتين تستحقان القسم بهما من الله العليم الحكيم في القرآن الكريم، وهذا ما نريد التركيز عليه في البحث إن شاء الله تعالى وبتوفيق منه سبحانه وتعالى إنه قريب مجيب، وسوف نبدأ هنا ببحث خصائص النهار، أما خصائص الليل فسوف نؤجلها إلى البحث في الفقرة القادمة من الآية الشريفة المباركة.

خصائص النهار

للنهار خصائص عديدة نشير إلى ما يتيسر لنا منها:

أولا ـ الخصائص الطبيعية للنهار ـ تأثيرات الشمس وفوائدها في الحياة: ونشير هنا إلى بعض التأثيرات المباشرة لضوء الشمس وفوائدها للكائنات والحياة على وجه الأرض، وهي فوائد وتأثيرات لا يمكن أن تحصى، ولكن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: الشمس ترسل باستمرار أشعة ضوئية حرارية وطاقة، وقد توصل العلم الحديث إلى أن أشعة الشمس لها فوائد عظيمة وتأثيرات مهمة جداً، بحيث لا تستطيع الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات العيش بدون الشمس، لأن أشعة الشمس تساعد على تسيير العمليات الحيوية، منها على سبيل المثال لا الحصر: أهمية أشعة الشمس في البناء الغذائي في أوراق النبات، فبدونها لا يستطيع النبات أن يصنع الغذاء من المواد الأولية التي تصل إلى أوراقه من الأرض، حيث يدخل ثاني أوكسيد الكربون من الجو إلى النبات، فيقابل المادة الخضراء (اليخضور أو الكلوروفيل) والماء، وتتكون من الكربون المواد الغذائية بفعل الحرارة والضوء، وهي عملية كيماوية معقدة، تسمى (عملية التمثيل الضوئي).

فالنبات يحتاج إلى الطاقة التي مصدرها الشمس لتسيير العمليات الحيوية داخل الخلايا الصانعة للغذاء، وهي عملية صعبة ومعقدة، ولا يمكن لأي مصنع أو أجهزة في الدنيا أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء في أي نبات، وهذا هو المصنع الأول والوحيد على وجه الأرض الذي يصنع فيه الغذاء للإنسان والحيوان.

الفائدة الثانية: من فوائد الشمس الصحية للإنسان أنها تطهر بأشعتها الأجواء والبيئات من الكائنات الدقيقة الضارة، فأشعة الشمس لها خواص مطهرة وقاتلة للجراثيم والبكتيريا، ولهذا قيل بحق: (إن البيت الذي لا تدخله أشعة الشمس.. هو بيت تكثر في أهله الأمراض)، حيث إن سوء تهوية البيوت وعدم دخول أشعة الشمس إليها تعتبر من أهم العوامل المساعدة على تكاثر الميكروبات والفطريات داخل البيوت، مما يسبب الأمراض خاصة إذا كانت الأجواء رطبة.

الفائدة الثالثة: لقد اكتشف الطب الحديث أهمية أشعة الشمس لنمو الأطفال الرضع، وإن الأطفال الذين يتربون في بيوت مظلمة لا تدخلها أشعة الشمس، يكونون أكثر عرضة من غيرهم للإصابة بالكساح، وهو مرض يصيب العظام باللين، والعضلات بالارتخاء، كما يؤخر نمو الأطفال الجسماني.

فقد ثبت علمياً: بأن الإشعاعات الشمسية التي تسقط على الجلد في الصباح الباكر.. تحتوي على كمية من الإشعاعات فوق البنفسجية ذات الأمواج المطلوبة لتصنيع فيتامين (د) عن طريق تفاعل الأشعة المذكورة مع المادة الدهنية الكامنة تحت الجلد، وقد ثبت أن فيتامين (د) لازم

لامتصاص الكالسيوم من الغذاء في الجسم، وتمثيله في العظام والعضلات مما يقلل من خطر الإصابة بهشاشة وترقق العظام، وقد ثبت أن نقص هذا الفيتامين يؤدي إلى الكساح.

وبالتالي فإنه ينبغي لنا تزود أجسامنا بهذا الفيتامين المستفاد من أشعة الشمس، عن طريق تعريض أجسامنا لأشعة الشمس، لمدة خمس دقائق على الأقل يومياً، لكي تأخذ حاجتها من هذا الفيتامين.

ومن جهة ثانية: فقد ثبت أن التعرض لأشعة الشمس يحقق أثراً علاجياً على الجلد، وخاصة عند من يعانون من حب الشباب والصدفية والالتهابات الجلدية، ويقول العلماء: إن الكثير من الاضطرابات والأمراض الجلدية تحدث بسبب شدة حساسية الجهاز المناعي، وأن أشعة الشمس تقلل من هذه الحساسية.

كما أثبتت بحوث عدة: إن نمو الورم في كل سرطانات المبيض والثدي والأمعاء يبطأ عند التعرض لأشعة الشمس.

ومن جهة ثالثة: فقد أوضح العلماء أن المستويات العالية من فيتامين (د) تلعب دوراً وقائياً عند الأشخاص الذين يعانون من أمراض القلب، مشيرين إلى أهمية أشعة الشمس فوق البنفسجية عند ارتفاع مستوى الكولسترول في الدم،

لأنها تحوله إلى فيتامين (د) فتقلل مستويات الكولسترول، وبالتالي التقليل من خطر الإصابة بالجلطات القلبية والسكتات الدماغية.

الفائدة الرابعة: أثبت العلماء أن التعرض لأشعة الشمس في الصباح الباكر، يساعد في تنظيم أنماط النوم عند الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات النوم والقلق، وذلك لأن ضوء الشمس الطبيعي يساعد في إعادة تشغيل الساعة البيولوجية الداخلية في الجسم.

كما تلعب أشعة الشمس دوراً مهماً في خلق حالة التوازن العاطفي.

وقد ثبت علمياً أيضاً: إن أشعة الشمس تفيد في تنشيط الغدة الصنوبرية لإنتاج مادة (الميلاتوتين) وهي مادة ذات صلة بمرض الاكتئاب، فالأشخاص الذين ينامون طوال النهار ويستيقظون طوال الليل، عرضة أكثر للإصابة بمرض الاكتئاب، كما أنهم يفقدون نشاطهم البيولوجي والطبيعي، إذ إن مادة الكورتيزون المسؤولة عن النشاط، تكون في ذروتها عند الصباح، ولذلك يبدو على هؤلاء الأشخاص وكأنهم متعبين بعد سفر طويل.

لذلك ينصح خبراء النوم: بالتعرض لضوء الشمس لمدة

ساعة على الأقل في الفترة الصباحية ما بين الساعة السابعة والساعة التاسعة، أو في الفترة المسائية من كل يوم، من أجل التخلص من مشكلات الأرق وعدم القدرة على النوم أثناء الليل، مشيرين إلى ضرورة النوم في غرفة غير مضاءة لأن الظلام يزيد إنتاج هرمون (الميلاتونين) المسؤول عن النوم.

والخلاصة: إن أشعة الشمس تقدم الكثير من الفوائد للصحة والبيئة والكائنات الحية والإنسان، إذ يساعد ضوء الشمس في تنظيم العمليات الحيوية في الجسم، كما يساعد في تحسين البيئة والصحة البدنية والنفسية وتحفيز النشاط.

ويقول العلماء: من الأفضل المشي تحت أشعة الشمس بدلا من الجلوس والتعرض لها مباشرة، لما لذلك من آثار سلبية مثل الحروق والسرطان، كما سنتعرف بعد قليل.

الأضرار الصحية للشمس: بعد أن تعرفنا فوائد أشعة الشمس في تحسين الصحة الجسمية والنفسية وتحفيز النشاط، ينبغي أن نتعرف بعضاً من أهم الأضرار الصحية التي تنتج عن التعرض لأشعة الشمس في وقت شدتها، لكي لا نقع في الخطأ غير المقصود. فقد أثبتت البحوث العلمية بأن التعرض المستمر لأشعة الشمس لفترات طويلة في وقت شدتها، يؤدي

إلى بعض الأضرار الصحية في الجسم، مثل قابلية الإصابة بعتمة عدسة العين (الكتاراكت ـ الماء الأبيض)، وقابلية الإصابة بالحصوات الكلوية الكالسيومية، بسبب كثرة تصنيع فيتامين (د) تحت الجلد، وهرم الجلد بسبب تعرضه المستمر لفترات طويلة للموجات الكهرومغناطيسية، خاصة الإشعاعات فوق البنفسجة وتحت الحمراء.

وقد أثبتت الدراسات: أنه كلما تعرض الجلد أكثر لأشعة الشمس، ـ خصوصا في الأوقات التي تزداد فيها أشعة الشمس تركيزا وقوة ما بين الساعة العاشرة صباحا والثالثة ظهرا ـ، زاد هرم الجلد وعجل بشيخوخته وفقدان نضارته، خصوصا إذا كان مصحوبا بجفاف وقلة ترطيب.

وهناك تغيرات مرضية أخرى تصيب الجلد نتيجة تعرضه المستمر لأشعة الشمس لفترات طويلة في وقت شدتها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

الحروق الشمسية والاحمرار الجلدي: نتيجة تعرض الجلد وخاصة المناطق المكشوفة مثل الوجه وظهر اليد لأشعة الشمس التي تحتوي على الموجات الحارقة من الأشعة فوق البنفسجية (الموجات ـ ب) في منتصف النهار، خاصة أصحاب البشرات الفاتحة التي لا تتحمل الإشعاعات

الشمسية القوية صيفا، بعكس أصحاب البشرات الداكنة، الذين يتحملون هذه الإشعاعات بصورة أفضل، وذلك بسبب مادة الميلانين في جلودهم، وقدرتها على امتصاص الإشعاعات الضارة قبل وصولها إلى الطبقات العميقة في الجلد.

ومن التغيرات المرضية الكثيرة الأخرى التي تصيب الجلد يسبب التعرض المستمر للإشعاعات الشمسية لفترات طويلة في وقت شدتها: التجاعيد والترهلات، وضمور طبقات الجلد المخملية، وفقدان مرونة الجلد وطراوته ونعومته، وتحزز الجلد خاصة خلف الرقبة والوجنتين، وظهور حبوب صفراء على الوجه والرقبة وظهر اليد، وبروز أوعية دموية متمددة على الوجه والأماكن المكشوفة من الجسم تشوه تناسق البشرة، وظهور التقرنات الضيائية والدهنية على سطح البشرة المكشوفة، وهي بقع مرتفعة عن سطح الجلد ذات لون بني فاتح مكونة من قشور قرنية متراصة، وهي علامات جلدية منذرة بتحولها إلى سرطانات جلدية إذا أهمل علاجها.

وأكثر الأشخاص عرضة لهذه الأخطار، هم الأشخاص الذين يعملون في مهن تجعلهم يمكثون باستمرار لفترات طويلة تحت أشعة الشمس بدون حماية، مثل البحارة والفلاحين والذين يعملون في الإنشاءات.

كيف نستفيد من نعمة الشمس ونتقي أضرارها الصحية؟:

بعد أن عرفنا فوائد الشمس لصحتنا وأضرارها عليها، ينبغي أن نعرف كيف نستفيد من أشعة الشمس ونتجنب أضرارها على صحتنا؟، وذلك باتباع النصائح التالية:

النصيحة الأولى: التعرض لأشعة الشمس في الصباح الباكر أو في المساء لمدة ساعة تقريبا، وتجنب التعرض إليها في أوقات شدتها بين الساعة العاشرة صباحا والثالثة ظهرا، ومن الأفضل المشي تحت أشعة الشمس بدلا من الجلوس والتعرض لها مباشرة.

النصيحة الثانية: أن نغطي أجسامنا ورؤوسنا بالملابس الفاتحة لأنها تمتص أشعة الشمس بدرجة أقل من الملابس الداكنة، وأن نستخدم النظارات الطبية السوداء التي تمنع دخول الإشعاعات الضارة إلى أعيننا، لكي لا تصاب بعتمة العدسة (الماء الأبيض)، وأن نستخدم المظلات الواقية فوق رؤوسنا إذا احتجنا للبقاء تحت أشعة الشمس لفترة طويلة.

النصيحة الثالثة: المحافظة على تروية الجلد من الداخل بشرب كميات كافية من الماء والسوائل الأخرى، بحيث تتناول كمية لا تقل عن ليترين ونصف الليتر من السوائل يومياً.

النصيحة الرابعة: إذا كانت المهنة تتطلب التعرض لأشعة الشمس بصورة مستمرة، ينبغي أن تطلى مناطق الجلد المكشوفة بمادة حاجبة لأشعة الشمس قبل التعرض لأشعة الشمس بنصف ساعة على الأقل، مع ملاحظة الجانب الشرعي فيما يتعلق بالحاجب في الوضوء والغسل.

النصيحة الخامسة: تناول الغذاء الصحي الذي يحتوي على البروتينات والأحماض الدهنية الأساسية والفيتامينات والمعادن الضرورية لتجديد البشرة.

النصيحة السادسة: في حالة شعورنا بجفاف الجلد واضمحلاله، ينبغي تدليك الجلد بعد الاستحمام عدة مرات بالمرطبات والملينات الملطفة، ويفضل أن تكون متعادلة المفعول.

ثانياً ـ الخصائص المعيشية للنهار: تحدثت فيما سبق عن بعض الخصائص الطبيعية للنهار، وأشير ـ هٰهنا ـ إلى الخاصية المعاشية، حيث يبعث ضياء الشمس على النشاط والحركة، وينتشر النور في كل مكان، مما يَعطي للإنسان ولكل حيوان فرصة أفضل للتنقل والسعي في الأرض لطلب الرزق، ويعطي الإنسان فرصة أوسع للتقلب واللقاء من أجل قضاء حوائج الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية وغيرها،

والانفتاح على مواقع الحياة الخاصة والعامة، التي هي من شروط قيام الحياة في المجتمع وتقدمه، وتطوره.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧].

وقد أوضحت في الخصائص الطبيعية: إن جميع أجهزة الجسم تكون فعالة ونشطة مع وجود الضياء والنور، بل إن النشاط والحركة تشملا كل الكائنات الحية، بل تشملا الموجودات قاطبة.

أكتفي بهذا المقدار اليسير من البحث في هذا الموضوع، لكي لا نخرج كثيراً عن المقام ودائرة البحث المحددة في الموضوع، فالمؤشرات تدل على أن البحث سيطول في السورة الشريفة المباركة.

ثالثاً ـ الخصائص المعنوية والجمالية للنهار: بعد أن تناولت بالبحث الخصائص الطبيعية للنهار، وأشرت إلى الخاصية المعيشية، ألفت النظر إلى خاصية في غاية الروعة

والأهمية، وهي الخاصية المعنوية والجمالية، حيث لون الضياء الجميل، وإشراق الشمس وانعكاسات أشعتها الخلابة على الأشياء، في منظر بهي بالغ الحسن والجمال، وما يصاحب ذلك من نشاط الكائنات وحركتها، مما يبرز بوضوح الجمال والحيوية في الأشياء والحياة، ويبعث على الفرح والسرور والأمل والتفاؤل والتأمل والتفكر في الإبداع وجمال الوجود، بحثاً عن الغاية من الوجود ومن الحياة، والبحث في قيمة العمل الذي يخرج الإنسان من أجله في الصباح الباكر من بيته تاركاً زوجه وأولاده وراحته، يبحث عن قيمته.. ويبحث عن غايته في الحياة، ويبحث عن المصير والعاقبة التي تنتظر وراء عمله في الدنيا وبعدها، وأهمية المصير ونوعه ومحدداته والطريق إليه، كل هذا وغيره يتحرك في فكر الإنسان وقلبه وضميره وهو ينفتح على الحياة ودلالاتها والعمل فيها كإنسان يمتلك العقل والشعور والحرية، ويعرف قيمته وكرامته كإنسان، ويتصرف في الحياة بالمسؤولية التامة الكاملة التي وضعها الله ذو الجلال والإكرام على عاتق الإنسان كإنسان عاقل يمتلك حرية الإرادة والاختيار، وسوف يسأل ويحاسب على عمله في الدنيا والآخرة.

أهمية التذوق الجمالي وقيمته في حياة الإنسان:

واعتقد بأن التذوق الجمالي أحد أهم الجوانب في التربية الإيمانية الراقية، فالمحرومون من ملكة التذوق الجمالي والخبرة الجمالية العالية، هم محرومون من درجات القرب المتميزة من الله العلي الأعلى، الذي هو الجمال المطلق، وخالق كل شيء جميل في الوجود سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً، فالتذوق الجمالي هو من المعارج التي يعرج فيها السالكون إلى الله تعالى بكل ذائقة جمالية في الجمال الحسي والجمال المعنوي، والذين يطلبون درجات القرب العالية التي هي للأبرار والصديقين والشهداء مع الأنبياء والأوصياء بأعلى عليين في الجنة وما فوقها، عليهم أن يهتموا بتربية ذائقتهم الجمالية وحسهم المرهف وتنميتهما وتطويرهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وإلا فلن يستطيعوا الوصول إلى الدرجات العالية في القرب من الله ذي الجلال والإكرام، تلك الدرجة التي يتطلع إليها الأبرار والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فمن لا نصيب له من التذوق الجمالي والخبرة الجمالية، ومن لا نصيب له من الحس المرهف الذي يشعره بكل انحراف وميل عن الحق والعدل، ويشعره بمعاناة البؤساء والمظلومين والمحرومين وغيرهم، ويحفزه للدفاع عن الحق والعدل وحقوق البؤساء والمظلومين

والمحرومين والضعفاء من الناس وغيرهم، فإنه لا نصيب له من القرب من الله السبوح القدوس الغفور الرحيم.

وقد خلق الله السبوح القدوس سبحانه وتعالى.. خلق الإنسان جميلاً وأودع في فطرته عشق الجمال والإقبال على كل ما هو جميل في الحياة والوجود والانجذاب إليه، وقد قال أحد الفلاسفة المحدثين: (لو استطاع أحد يوماً أن ينتزع من قلوبنا حب الجمال، لما بقي للحياة في أعيننا أي سحر).

وفي واقع الأمر فإن إقبال الإنسان وعشقه وانجذابه إلى الجمال، هو إقبال وعشق وانجذاب وسير إلى الله الواحد القهار سبحانه وتعالى في جماله المطلق، حيث إن المتذوق للجمال، يرى بأن هناك فوق كل جمال يتذوقه بذائقته الجمالية.. هناك ما هو أجمل منه، فيطلبه وينمي ذائقته الجمالية، وهكذا يشق المتذوق للجمال طريقه إلى الله ذي الجلال والإكرام بقدم التذوق الجمالي العالي، حتى يصل إلى الدرجات العالية في القرب منه سبحانه وتعالى والحصول على رضاه جل جلاله، حيث إن التذوق الجمالي فيه تهذيب للنفس وتطهير لها من كل صفة ذميمة، وهذا هو جوهر التذوق الجمالي وشرط التقدم في معارج الكمال والقرب من الله ذي الجلال والإكرام، سبحانه

وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً.

ومن المؤكد أن لذة تأمل الجمال والخبرة الجمالية هي أقوى اللذات الإنسانية واسماها وأطهرها، وأن الشعور بآلام المستضعفين والمحرومين وغيرهم من الناس هو من أنبل وأقدس الشعور في الأرض، والسعي لإنصافهم وإعطائهم حقوقهم والالتزام بذلك من أقدس الغايات وأنبلها، وأن عاقبة ذلك أفضل عاقبة في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى.

النقطة الثانية في الجواب على سؤال: لماذا خص الله جل جلاله الضحى بالقسم ؟

التذكير بأيام الله والنعم الإلهية المعنوية على الإنسان. ذكرت في النقطة الأولى خصائص النهار، على فرض أن المراد من الضحى النهار كله، وأرجو أن أكون قد وفقت في إبراز خصائص مهمة فعلاً للنهار، يستطيع القارىء من خلالها أن يدرك عظمة القسم الإلهي بالنهار، وفي هذه النقطة أذكر وجهاً آخر يبرز عظمة القسم الإلهي بوقت الضحى خاصة.

قال بعض علماء التفسير: خص الضحى بالقسم لأنه الوقت الذي كلم الله جل جلاله فيه عبده ورسوله (موسى بن عمران عليه السلام)، وهو الوقت الذي آب فيه السحرة إلى ربهم وألقوا إليه ساجدين.

قال الله تعالى ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٧ ـ ٥٩].

الدروس التي نستفيدها من هذا الموضوع

الدرس الأول: معرفة نعمة الهداية إلى الله تعالى التي هي أعظم نعمة أنعم الله سبحانه وتعالى بها على الإنسان وحفظها وشكرها وأداء حقها، وهي النعمة التي يسأل الإنسان عنها أكثر يوم القيامة إذا ضيعها، كما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

في مجمع البيان عن العياشي.. قال: سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام والماء البارد، فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه. قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألف الله بين

قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم، وهو النبي ﷺ وعترته.

أيها الأحبة الأعزاء: إن مقتضى حفظ هذه النعمة وشكرها لله تعالى، هو معرفة أئمة الهدى عليهم السلام وطاعتهم وتقديمهم على كل أحد غيرهم، وليس كما فعل اليهود ولا يزالون يفعلون وسار على نهجهم آخرون وقال الله تعالى عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

الدرس الثاني: الإخلاص للحقيقة والتقيد بها بعد معرفتها والحصول عليها كما فعل السحرة رضوان الله تعالى عليهم حينما خروا لله ساجدين، وقالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون، ولم يفرطوا فيها ولم يتشرنقوا في المواقع والبروج الذاتية للأطروحات والمواقف المسبقة، على حساب الحقيقة والمصالح العامة للناس وحقوقهم وهدايتهم، كما نجده عند الكثير من الناس حكاماً ومحكومين، ويشمل ذلك بعض المؤمنين ـ هداهم الله تعالى لمرضاته وجنبهم سخطه وغضبه عليهم ـ حيث يغلب عليهم الطابع التبريري للآراء والمواقف، والتخندق عند الآراء والمواقف المسبقة

والدفاع عنها والدوران حولها، جهلاً أو استهواء أو ضعفاً في الإرادة والتصميم أو متابعة للآخرين ومراعاتهم على غير أساس صحيح، بدلاً من الاجتهاد والبحث العلمي الموضوعي النزيه المجرد عن الحق في الآراء، والأفضل في المواقف الإسلامية والوطنية، استناداً إلى تشخيصات علمية موضوعية منهجية دقيقة، وهذا كله يؤدي إلى تعقيد الساحة الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية وغيرها على مختلف الأصعدة الإسلامية والقومية والوطنية، ويشوش الرؤية على البسطاء من الناس والأتباع، ويساهم في تضييع الحق والحقوق العادلة وتخلف الواقع الإسلامي والقومي والوطني، ولهذا ينبغي علينا جميعا تركه والحذر منه لخطورته، وهو خلاف روح الإيمان وحقيقته، وخلاف الإخلاص القومي والوطني.. وشرف المواطنة والقومية والدين، الأمر الذي يفرض علينا جميعاً البحث عن الحق في الآراء والاطروحات، والعدل في المواقف الإسلامية والقومية والوطنية، والالتزام العملي بهما، والحرص الشديد على صيانة الحقوق والمصالح العامة للمسلمين والمواطنين، والدفاع عنها بقوة وشجاعة، والالتزام العملي بها بواقعية موضوعية غير ذاتية، وعدم التفريط في شيء من ذلك مهما كان الثمن.

ولهذا القسم أشباه في القرآن الكريم.

قول الله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٢ ـ ٣].

حيث نجد في هاتين الآيتين الشريفتين المباركتين القسم بالمكان المقدس، الذي وقعت فيه أحداث مقدسة.

وقول الله تعالى :﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥].

حيث نجد في هذه الآيات الشريفة المباركة القسم بالزمن المقدس وبالأفعال والأحداث المقدسة ذات الدلالات الملكوتية المقدسة.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١ ـ ٣].

حيث نجد في هذه الآيات الشريفة المباركة، الإشارة إلى الحدث المقدس في الزمن المقدس.

ونخلص من الآيات الشريفة المباركة السابقة: إلى أن الزمن المقدس، والمكان المقدس، هما ظرفان للأحداث المقدسة العظيمة والآيات ذوات الدلالات الملكوتية

المقدسة، ثم جعلا ظرفين مفضلين للأعمال العبادية المقدسة وللطاعات، وأصبحا ذوي بركة عظيمة على الإنسان في دينه ودنياه وآخرته، حيث يستشرف الإنسان والعبد المطيع لمولاه السالك إليه بقدم صدق وعبودية، إيحاءات الأحداث المقدسة والآيات والمقامات الملكوتية المقدسة في الزمن المقدس والمكان المقدس في عبادته وطاعته، ويقتبس منها الأنوار الملكوتية والحقائق العظيمة والنفحات والمواهب والعطايا الإلهية والفيوضات الملكوتية، التي يعرج بها إلى ربه ومولاه، ويقترب بها إلى معشوقه رفيع الدرجات ذي العرش العظيم.

وللقسم الإلهي بحسب هذا التفسير دلالات عديدة مهمة، أذكر منها الدلالات التالية:

الدلالة الأولى: التذكير بأيام الله الناصر القاهر الغياث الأعلى سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون، ونصرته جل جلاله لأنبيائه عليهم السلام ولعباده الصالحين ضد أعدائهم المشركين والظالمين.

الدلالة الثانية: التنبيه إلى الآيات الكونية والأحداث المقدسة مثل تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر العظيمة، ومراقبة الأزمنة المقدسة، ومراعاة حرمة الأماكن المقدسة،

وضرورة التفكير فيها، والتأمل في دلالاتها، والانفتاح على آفاق الملاحم الغيبية وجهود السالكين وجهادهم وحركاتهم التي جرت في الأزمنة المقدسة والأماكن المقدسة، وأخذ الدروس والعبر العالية منها، من أجل تعليم النفس وتزكيتها، وبناء إنسانية الإنسان وتكميلها، ومن أجل معرفة الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، والتحفيز على سلوكها وقطعها إليه في أنس وسهولة.. بدون وحشة أو عذاب، بقدم الحب والصدق والإخلاص، وفيها تذكير بفضل الأعمال العبادية والطاعات ودورها في بناء الحياة وتعميرها وتطويرها، والتذكير بفضل الجهاد في سبيل الله سبحانه تعالى وهداية الناس إليه بقدم المعرفة والحب والصدق والإخلاص.

الدلالة الثالثة: التذكير بالنعم الإلهية المعنوية العظيمة، مثل نعمة النبوة والإمامة والكتاب، التي هي أعظم شأناً وأشرف مكانة من النعم المادية، والتذكير بفضل الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وبفضل الفقهاء والعلماء الروحانيين، والشهداء المضحين والمجاهدين في سبيل الله سبحانه وتعالى، الصادق القريب الباعث الوارث تقدست أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، أولئك الأبطال الأفذاذ والمعلمين الذين صنعوا الملاحم وأضاؤوا طريق الرب والإنسانية لكل من يطلب الهداية من العباد، وفيها تنبيه على المطالبة بأداء

حقهم علينا وعلى التاريخ والإنسانية، عن طريق سلوك الطريق النوراني نفسه الذي سلكوه في الحياة، وهو طريق الرب الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، واتباع المنهج الصائب الصاعد الجاد الذي اتبعوه في الجهاد وخدمة الإنسانية، من أجل تقدمها وتطورها وراحتها وسعادتها في الدنيا والآخرة، ويكون أداء حقهم بالمحافظة على مكتسباتهم في الحياة العامة، والمحافظة على نتائج عملهم وجهادهم وتضحياتهم من أجل تقدم الحياة وتطورها وهداية البشرية وسعادتها في الدنيا والآخرة، وعدم التفريط في شيء من ذلك، والحرص بصدق وإخلاص على تنميتها والزيادة عليها.

قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال على لسان خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٨٥].

الأعمال المفضلة في وقت الضحى

العمل الأول ـ العمل والسعي في طلب الرزق وتنمية الحياة.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ كتاب: المعيشة. باب: الحث على الطلب والتعرض للرزق ـ ص ٧٨ ـ ٧٩ ـ الحديث ٨ ـ عن خالد بن نجيح قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (اقرؤوا من لقيتم من أصحابكم السلام ويقول لكم: إن فلان ابن فلان يقرئكم السلام وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل وما ينال به ما عند الله إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد وإذا صليتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه).

وفيه ـ ص٧٨ ـ الحديث ٣ ـ عن أيوب أخي أديم بياع الهروي قال: كنا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام، إذ أقبل العلاء بن كامل فجلس قدام أبي عبد الله عليه السلام فقال: أدع الله أن يرزقني في دعة (الدعة: الراحة وخفض العيش) فقال: لا أدعو لك اطلب كما أمرك الله .

وفيه ـ ص٧٨ ـ الحديث ٥ ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال:

(من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وتوسيعاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله ﷻ يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر).

وفي كنز العمال ـ ج٤ ـ ص ٥ ـ الحديث ٩٢٠٤ ـ (طلب الحلال واجب على كل مسلم).

وفيه ـ ص ٦ ـ الحديث ٩٢٠٥ ـ (طلب الحلال جهاد).

وفيه ـ ٦ ـ الحديث ٩٢١٠ ـ (إن كان خرج يسعى على ولده صغار فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان).

وفيه ـ ص ٧ ـ الحديث ٩٢١٥ ـ (من بات كالا في طلب الحلال بات مغفوراً له).

وفيه ـ ص٨ ـ الحديث ٩٢٢٧ ـ (طلب الحلال مثل مقارعة الأبطال في سبيل الله، ومن بات عيياً من طلب الحلال بات والله تعالى عنه راض) ـ

وفيه ـ ص٩ ـ الحديث ٩٢٣١ ـ (من صبر على القوت الشديد صبراً جميلاً أسكنه الله من الفردوس حيث شاء).

وفيه ـ ص ٨ ـ الحديث ٩٢٢٣ ـ (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام وهو ملك كان يأكل من عمل يده).

العمل الثاني ـ صلاة الضحى في مدرسة الخلفاء.

وهي سنة عند ثلاثة من الأئمة، وقال المالكية: إنها مندوبة ندباً أكيداً وليست سنة، وهي ليست واجبة عند الجميع، فمن شاء ثوابها فليؤدها وإلا فلا تثريب عليه إن تركها.

ملاحظة: الشافعية والحنابلة لا يفرقون بين المندوب والسنة والمستحب والتطوع والفضيلة، فكلها عندهم بمعنى واحد، وهو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه. أما المالكية والحنفية، فهم يفرقون بين المندوب والسنة، فالسنة طلبها آكد، وعلى كل حال فإن فاعلها يثاب وتاركها لا يعاقب.

وقت صلاة الضحى: يبتدىء وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى زوالها، والأفضل أن تؤخر إلى أن ترتفع الشمس. وقال بعضهم: تؤخر إلى بعد ربع النهار.

وقال المالكية: الأفضل تأخيرها حتى يمضي بعد طلوع الشمس مقدار ما بين دخول وقت العصر وغروب الشمس.

عدد ركعات صلاة الضحى: أقلها ركعتان. . وأكثرها ثماني ركعات، فإن زاد على ذلك عامداً عالماً بنية الضحى لم ينعقد ما زاد على الثماني، فإن كان ناسياً أو جاهلاً انعقد نفلا مطلقاً عند الشافعية والحنابلة.

أما الحنفية فقالوا: أكثرها ست عشرة ركعة، وإذا زاد عليها فهناك افتراضاً هما:

الافتراض الأول: أن يكون قد نواها كلها بتسليمة واحدة، وفي هذه الحالة يجزئه ما صلاه بنية الضحى، وينعقد الزائد نفلا مطلقاً، إلا أنه يكره له أن يصلي نفل النهار زيادة على أربع ركعات بتسليمة واحدة.

الافتراض الثاني: أن يصليها مفصلة ركعتين. . ركعتين (أو) أربعاً. . أربعاً، وفي هذه الحالة لا كراهية في الزائد مطلقاً.

وقال المالكية: إن زاد على الثماني صح الزائد ولا يكره على الأصح.

قضاء صلاة الضحى: يستحب قضاؤها إذا خرج وقتها عند الشافعية والحنابلة.

أما المالكية والحنفية فعندهم: إن جميع النوافل إذا خرج

وقتها لا تقضى، إلا ركعتي الفجر فإنهما يقضيان إلى الزوال.

وفي مدرسة أهل البيت ﷺ: قال الشيخ محمد جواد مغنية (رحمه الله تعالى): لا حصر للصلاة المندوبة، فهي قربان كل تقي، فمن شاء استقل ومن شاء استكثر، ولكل إنسان أن يصلي ركعتين ابتداء في كل زمان ومكان بنية القربة المطلقة. (تفسير الكاشف).

تقسيم النافلة في مدرسة أهل البيت ﷺ وأحكامها:

يمكن تقسيم النافلة في مدرسة أهل البيت ﷺ إلى ثلاثة أقسام، وهي كالتالي:

القسم الأول ـ النافلة الراتبة: وهي النوافل اليومية وعددها أربع وثلاثون ركعة كالتالي:

ثمان ركعات للظهر تصلى قبلها.

ثمان ركعات للعصر تصلى قبلها.

أربع ركعات للمغرب تصلى بعدها.

ركعتان من جلوس للعشاء تصليان بعدها، وتعدان بركعة واحدة، وتسمى بالوتيرة.

ركعتان للفجر تصليان قبلها.

ثمان ركعات بعد منتصف الليل وتسمى نافلة الليل.

ركعتا الشفع بعد نافلة الليل.

ركعة الوتر بعد الشفع.

في يوم الجمعة: تزاد على نوافل الظهرين أربع ركعات قبل الزوال.

القسم الثاني ـ النافلة ذات السبب: وهي التي ثبت استحبابها بدليل خاص في بعض الأوقات أو لبعض الأفعال أو لبعض الغايات أو لغير ذلك، مثل: صلاة الطواف المندوب، وصلاة الزيارة، وتحية المسجد، والصلوات المستحبة في الليالي والأيام وغير ذلك مما يصعب حصره.

القسم الثالث ـ النافلة المبتدأة: وهي التي ثبت استحبابها بالعمومات الدالة على استحباب مطلق الصلاة، وإنها خير موضوع، فمن شاء استكثر ومن شاء استقل، وليس لها وقت محدد ولا سبب مخصوص.

قضاء النافلة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام: يقول الشيخ محمد أمين زين الدين (رحمه الله تعالى): (يستحب قضاء النوافل الرواتب استحباباً مؤكدا، ويستحب قضاء النوافل غير الرواتب إذا كانت مؤقتة، والأولى أن يأتي بقضاء هذه

باحتمال المطلوبية، ويجوز قضاء النافلة في أي وقت شاء من الليل أو النهار، ولا يتأكد قضاء ما فات الإنسان من النافلة حال المرض). (كلمة التقوى ـ ج٢ ـ المسألة ٩٥٢ ـ ص٢٧٠).

عدد ركعات النافلة: يجب في النوافل كلها أن يصليها الإنسان ركعتين.. ركعتين بتشهد وتسليم بعدهما، إلا الوتر من صلاة الليل فإنها ركعة واحدة، وصلاة الإعرابي فإنها عشر ركعات بثلاثة تسليمات، وهذه كيفيتها:

في مصباح المتهجد: أتى رجل من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنا نكون في هذه البادية بعيداً من المدينة، ولا نقدر أن نأتيك في كل جمعة، فدلني على عمل فيه فضل صلاة الجمعة، إذا مضيت إلى أهلي خبرتهم به، فقال له رسول الله ﷺ: إذا كان ارتفاع النهار فصل ركعتين تقرأ في أول ركعة الحمد مرة.. وقل أعوذ برب الفلق سبع مرات، واقرأ في الثانية الحمد مرة واحدة.. وقل أعوذ برب الناس سبع مرات، فإذا سلمت فاقرأ آية الكرسي سبع مرات، ثم قم فصل ثماني ركعات بتسليمتين، واقرأ في كل ركعة منها الحمد مرة.. وإذا جاء نصر الله والفتح مرة.. وقل هو الله أحد خمساً وعشرين مرة،

فإذا فرغت من صلاتك فقل: سبحان الله رب العرش الكريم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبعين مرة، فوالذي اصطفاني بالنبوة ما من مؤمن ولا مؤمنة يصلي هذه الصلاة يوم الجمعة كما أقول إلا وأنا ضامن له الجنة، ولا يقوم من مقامه حتى يغفر له ذنوبه ولأبويه ذنوبهما. (جواهر الكلام - كتاب الصلاة - ج٧ - ص٦٨ - ٦٩).

العمل الثالث - الصدقة لدفع البلاء

في الكافي الشريف - ج٤ - كتاب الزكاة - باب: الصدقة تدفع البلاء - ص ٦ - الحديث ٧ - عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: (من تصدق بصدقة حين يصبح أذهب الله عنه نحس ذلك اليوم).

وفيه - ص ٦ - الحديث ٥ - عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (بكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها)

ومثله في (كنز العمال - ج٦ - ٣٩٩ - الحديث ١٦٢٤٣).

وفيه - ص٥ - الحديث ١ - عنه عليه السلام، أنه قال: (بكروا بالصدقة وارغبوا فيها فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما

عند الله ليدفع بها عنه شر ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم إلا وقاه الله شر ما ينزل في ذلك اليوم).

وفي كنز العمال ـ ج٦ ـ ص ٣٩٨ ـ الحديث ١٦٢٤٢ ـ (إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن صلة الرحم تزيد في العمر، وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وإن قول لا إله إلا الله يدفع عن قائلها تسعة وتسعين باباً من البلاء. ـ أدناها الهم).

وفيه ـ ص ٤٠٠ ـ الحديث ١٦٢٥٤ ـ (الصدقات بالغدوات تذهب بالعاهات) ـ (الغدوات: جمع غدوة: وهو ما بين الفجر وطلوع الشمس).

العمل الرابع:

السعي في قضاء حوائج الناس، وصلة الأرحام، وإصلاح ذات البين، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . ـ الخ.

قال الله تعالى مخاطباً الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلٗا﴾ [المزمل:٧].

فالرسول الأعظم الأكرم ﷺ مشغول طوال النهار بهداية الخلق وإبلاغ الرسالة وحل كافة المشاكل التي تواجه الناس في حياتهم.

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (حفظه الله تعالى وأطال في بقائه) في تفسير الآية: (سبح: على وزن مدح، وتعني في الأصل الحركة والذهاب والإياب ويطلق على السباحة لما فيها من الحركة المستمرة.

وكأنه يشبه المجتمع الإنساني بالمحيط اللامتناهي الذي يغرق فيه الكثير من الناس وأمواجه المتلاطمة تتحرك في كل الجهات وفيها السفن المضطربة التي تبحث عن الملجأ الآمن، والرسول ﷺ هو المنجي الوحيد للغريق في هذا المحيط، وقرآنه سفينة النجاة الوحيدة في هذا المحيط).

في البحار ج٧٥ ـ كتاب العشرة ـ باب: من ينفع الناس وفضل الإصلاح بينهم ـ ص ٣٢ ـ الحديث ١ ـ قال رسول الله ﷺ: (خير الناس من انتفع به الناس).

وفي نهج البلاغة ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام عند وفاته في وصيته للحسن والحسين عليهما السلام: (أوصيكم وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما رسول الله ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام).

وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: (واجتهدوا أن يكون زمانكم أربع ساعات ـ ساعة لله لمناجاته، وساعة

لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الأخوان التقات والذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث الساعات).

وفي كنز العمال ـ ج ٣ ـ ص ٧٨١ ـ الحديث ٨٧٣٧ ـ (عن علي عليه السلام قال: إن الجنة لتشتاق إلى من سعى لأخيه المؤمن في قضاء حوائجه ليصلح شأنه على يديه، فاستبقوا النعم لذلك، فإن الله يسأل الرجل عن جاهه فيما بذله، كما يسأله عن ماله فيما أنفقه).

وفيه ـ ج٦ ـ ص ٤٣١ ـ الحديث ١٦٤٠٩ ـ (ما من مؤمن أدخل على مؤمن سروراً إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله ويمجده ويوحده، فإذا صار المؤمن في لحده، جاء السرور الذي أدخله عليه فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي أدخلته على فلان، أنا اليوم أؤنس وحشتك، وألقنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد بك مشهد القيامة، وأشفع لك من ربك، وأريك منزلك من الجنة).

وفيه ـ ص٤٣٢ ـ الحديث ١٦٤١٢ ـ (من أدخل على أخيه المسلم فرحاً أو سروراً في الدنيا، خلق الله عز وجل من ذلك خلقاً يدفع به عنه الآفات في دار الدنيا، فإذا كان يوم

القيامة، كان منه قريباً، فإذا مر به هول يفزعه قال له: لا تخف، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا الفرح أو السرور الذي أدخلته على أخيك في دار الدنيا).

وفيه ـ ص ٤٣٢ ـ الحديث ١٦٤١٥ ـ (يا أنس: أما علمت أن موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم، تنفس عنه كربة، أو تفرج عنه غماً، أو ترجي له ضيعة، أو تقضي عنه ديناً، أو تخلفه في أهله) ـ وفي حديث آخر (إشباع جوعته وتنفيس كربته).

وفيه ـ ص ٤٣٢ ـ الحديث ١٦٤١٣ ـ (من سر مسلماً بعدي فقد سرني في قبري، ومن سرني في قبري، سره الله تعالى يوم القيامة).

القسم الثاني ـ القسم بالليل

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

سَجَى: سبق توضيحه.

أقسم الله جل جلاله في هذه الآية الشريفة المباركة: بالليل إذا أظلم وسكن أهله بعد الحركة والعمل في النهار،

بالليل حين تنام العيون ويسهر الحالمون، بالليل حين تصفو الروح ويهدأ الجسد وترتاح المشاعر، بالليل حين تلتقي الأفكار النورانية المنفتحة على الله الحفي الرقيب، تلتقي بالمشاعر الصافية المنفتحة على الخير.. والمحبة.. والسلام، وأقسم بالليل حين تظلم الأفكار عند البعض بسبب الغفلة عن الله النور الحق المبين والابتعاد عنه جل جلاله، وبالليل حين تتلوث الروح ويقسو القلب وتقلق المشاعر عند هذا البعض بسبب المعاصي والموبقات، فتلتقي الأفكار المظلمة القاتمة المنفتحة على الشيطان الغوي الرجيم، وعلى الهوى، وعلى النفس السوداء.. الأمارة بالسوء، تلتقي بالمشاعر النرجسية السوداء الحاقدة المظلمة، المنفتحة على الشر والكيد والدسائس والمؤامرات والفجور، في ظلام الليل وستره المرخى على العباد، يسترهم عن عيون الناس وأبصارهم، ولكن عين الله الرقيب القريب تراقبهم عن قرب وترصد حركاتهم، ويمكرون وعند الله مكرهم، ويمكر الله.. والله خير الماكرين، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

فالقسم بالليل: يعني القسم بالظلام والستر، وبالهدوء والسكينة والنوم والاسترخاء، وبالمناجاة والدعاء والصلاة،

وبالأنين والآهات وزفرات المعذبين والمحرومين والفاقدين، والقسم بالمكر السيئ الذي يعود بالشر على الناس، وبالمكر الحسن الذي يعود بالخير على الناس، لا يعلمه إلا الله شاهد كل نجوى سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

خصائص الليل

لليل خصائص عديدة نشير إلى ما يتيسر لنا منها:

الخاصية الأولى ـ نعمة النوم: حيث يبعث الليل والظلام والهدوء على استرخاء الإنسان والكائنات الحية، وعلى النوم والسكون، والنوم والاسترخاء هما أهم مميزات الليل، وسوف نبحث في نعمة النوم كأحد أهم خصائص الليل، لنتعرف قيمة القسم الإلهي العظيم بالليل، والله ولي التوفيق والتسديد، نعم المولى ونعم النصير.

أيها الأحبة الأعزاء: يعتبر النوم من أهم النعم التي أنعم الله الرازق الأكرم الجواد جل جلاله بها على الإنسان، فالنوم يعطي الجسم الراحة التي يحتاجها بعد جهد يوم كامل، ويمنح الروح الأمن والسلام بعد مكافحة صفحات النهار الصعبة ومعاناته، لكي يستعيد الإنسان نشاطه وحيويته لليوم التالي.

ويتراوح نوم الإنسان بين ثلاث ساعات لدى البعض، وعشر ساعات لدى البعض الآخر، والمتوسط لدى الإنسان الطبيعي (بين ٦ ـ ٨ ساعات في اليوم الواحد).

وعدد الساعات التي يحتاجها الشخص نفسه تكون ثابتة عادة، على الرغم أن الشخص قد ينام في بعض الليالي أكثر من ليالٍ أخرى، إلا أن عدد الساعات التي ينامها الشخص خلال أسبوع أو شهر تكون ثابتة عادة.

وخلال هذا الوقت الطويل الذي يقضيه الإنسان في النوم، تحدث العديد من التغيرات والوظائف العضوية والعمليات الفيزيولوجية، مثل إفراز الهرمونات الهامة للجسم وإعادة بناء أنسجة الجسم، وتحصل الكثير من أعضاء الجسم مثل القلب والدماغ على راحتها.

وتتحكم في النوم حزمة من الأعصاب تغوص في الدماغ وتنظم عملية إفراز مادة كيمائية باعثة على النوم تسمى: (الملاتونين ـ هرمون النوم)، وهي التي تضبط وقت النوم ووقت الاستيقاظ لكل إنسان.

وقد أكد علماء سويسريون: على أن لكل فرد ساعة حيوية، إذا استيقظ الإنسان قبلها، فإن نومه لا يكون متكاملاً.

المراحل في دورة النوم الكاملة: ويمر الإنسان الطبيعي خلال نومه المعتاد بحوالى (٤ ـ ٦: مراحل) يمثل المرور بها جميعاً دورة نوم كاملة (ومدتها ٧٠ ـ ٩٠ دقيقة تقريباً) والمراحل كالتالي:

المرحلة الأولى: هي مرحلة النوم الانتقالي، وهي حالة يمر بها النائم بين اليقظة.. والنوم، وتستمر لمدة عشر دقائق تقريبا.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة النوم الخفيف وتستمر لمدة عشرين دقيقة تقريبا.

وفي هاتين المرحلتين يسترخي الجسم تماماً، وتغلق حواس الجسم، ويكون نشاط الدماغ بطيئاً ومنتظماً.

المرحلة الثالثة والرابعة: ويكون النوم فيهما عميقاً.. وأكثر راحة، ويطلق عليهما نوم الدلتا، بسبب تلازمهما مع ظهور نوع من الموجات العصبية الصادرة عن المخ وتعرف بموجات دلتا.

وهاتان المرحلتان: هما أهم جزء من النوم الذي تحتاج إليه أعضاء أجسامنا وأعصابنا وعقولنا، لكي تتمكن من التخلص من أعباء اليوم السابق واستعادة نشاطها وحيويتها ليوم جديد. ففي هاتين المرحلتين تفرز الهرمونات.. وتبنى

الخلايا البالية. . وتجدد خلايا الدم الحمراء، وبالتالي فإن نقص هاتين المرحلتين من النوم، ينتج عنه التعب والإجهاد خلال النهار، ويكون المزاج معكراً، ويشعر الشخص بضغط عصبي واكتئاب، كما تضطرب الذاكرة والحكم على الأشياء، والطالب الذي لم يحصل على حاجته من النوم في هاتين المرحلتين، يصعب عليه التحصيل العلمي، ويؤدي الامتحانات بصورة رديئة. . خاصة في الرياضيات والمواد المشابهة لها.

المرحلة الخامسة: وتعرف بمرحلة حركة العين السريعة، وتبدأ بعد حوالى (٧٠ ـ ٩٠ دقيقة)، وفي هذه المرحلة يفرز الدماغ مواد كيمائية في مراكز الشعور، وتحدث الأحلام وتخزن أحداث اليوم في الذاكرة، وتزيد ضربات القلب، وترتعش الأصابع والأنامل، وتزيد سرعة تنفس النائم ونشاط دماغه، وتجول العين للأمام وللخلف تحت جفن العين، وتعتبر هذه المرحلة في غاية الأهمية لاستعادة الذهن لنشاطه وحيويته وكفاءته لعمل يوم جديد.

وقد توصل العلماء: إلى أن الدماغ يستمر في بث المعلومات أثناء النوم، وأن نشاطه في التعليم مشابه جدا مع قدرة التعلم أثناء الاستيقاظ.

ويعتقد بعض العلماء: أن الأحلام تعكس عملية تنظيف شامل في المخ، يطلقون عليها عملية (التعليم المعكوس) وهي عملية تعمل على استبعاد نماذج السلوك غير المرغوب فيه، والمعلومات عديمة الجدوى من المخ.

كما يرى أصحاب هذه النظرية: أن الأحلام تمثل عملية نافعة ومفيدة بيولوجيا، حيث تسمح للجهاز العصبي أن يواصل أداء وظائفه بكفاءة.

النوم غير الصحي: تعتبر آلية النوم عملية معقدة جداً، ترتبط فيها مختلف الأعضاء ارتباطاً وثيقاً، وقد تحدث بعض الاضطرابات العضوية أو النفسية أو السلوكية التي تؤثر على آلية النوم، وينتج عنها اضطرابات في النوم تجعل منه نوماً غير صحي، والنوم غير الصحي يؤثر بدوره على صحة الإنسان من جهات عدة.

فقد أثبتت الدراسات أن الأرق المزمن: يقلل قدرة البالغين على تأدية الوظائف الحيوية الأساسية مثل تخزين النشويات وعمليات الدماغ، ويؤثر على نظام إفراز الهرمونات، وتظهر أعراض مشابهة لأمراض الشيخوخة أو المراحل الأولى لمرض السكر، وتظهر حالات توتر وتعكر مزاجي.

ويؤكد العلماء: على أن الأرق له علاقة بأعراض تقدم السن والسكر واضطرابات ضغط الدم التي تؤدي إلى الأزمات القلبية.

ومن الهرمونات الأساسية التي تتأثر بالنوم غير الصحي، هرمون الكورتيزول، ويعرف بهرمون الضغط العصبي، حيث من المفترض في الحالة الطبيعية، أن يقل معدل هذا الهرمون حين الاستعداد للنوم، ويزداد عند الاستيقاظ ليساعد على النشاط والحركة، وفي النوم غير الصحي يرتفع الكورتيزول في الليلة التالية، وتفرز الغدة الكظرية هذا الهرمون بسهولة عند التعرض لأي ضغط أثناء النهار، وزيادة هرمون الكورتيزول لوقت طويل يمكن أن يؤدي إلى تحطم الخلايا الدماغية، وضمور في مناطق الدماغ الخاصة بالتعلم والذاكرة.

كما يؤثر الأرق على هرمونات بناء العضلات وهرمون النمو ويقلل من كفاءة الأجهزة المناعية للجسم، بل إن الناس الذين يأخذون وقتاً أطول في النوم عندهم نقص في الخلايا القاتلة وهي العنصر الهام في الجهاز المناعي الخاص بقتل الفيروسات والخلايا السرطانية.

إن النوم بالليل ضروري من أجل عمل عدد من الوظائف

الحيوية لجسم الإنسان، حتى إن النوم لفترة قصيرة خلال الليل يقوي من مهارات التعلم والذاكرة وخصوصا استذكار ما حدث في الماضي واستذكار التصورات، كما يقوي المهارات الفردية والمواهب الشخصية ويريح الأعصاب، والنوم يطيل العمر والسهر يقصفه، فالحذر من السهر الكثير، وعلينا السعي لتجنب الأرق، وعلينا السعي لتوفير مستلزمات النوم المريح.

من أجل نوم سليم

وفي سبيل الحصول على نوم صحي سليم، علينا اتباع النصائح التالية:

النصيحة الأولى: تجنب المنبهات قبل النوم كالقهوة والشاي والنيكوتين والرياضة.

النصيحة الثانية: تثبيت ميعاد للنوم في جميع الأيام.

النصيحة الثالثة: عدم النوم عصرا.

النصيحة الرابعة: ضبط حرارة الجسم بحيث تكون أكبر من درجة حرارة الغرفة، حيث يساعد تدفئة الأطراف على سريان الدم وبالتالي إفراز هرمون النوم.

النصيحة الخامسة: النوم على الظهر أو أحد الجانبين: الأيمن أو الأيسر، وتجنب النوم على البطن.

النصيحة السادسة: خفت الأنوار في غرفة النوم، لأن النور الممتص من العين قد يوقظ الساعة الحيوية للإنسان.

النصيحة السابعة: ترك النوم حتى وقت الظهيرة، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى اضطراب الساعة الحيوية للإنسان.

الخاصية الثانية ـ صلاة الليل: تحدثت في الخاصية الأولى عن قيمة النوم وأهميته لراحة الجسد والأعصاب والدماغ وتجديد الحيوية والنشاط فيها ليوم عمل جديد، لكي تستمر الحياة بقوة في حيوية وفرح وتفاؤل وجمال من خلال التنوع وتكامل الخصائص بين الليل والنهار، بعيدا عن الرتابة.. والروتين.. والجمود في الحياة.

وفي هذه الخاصية الثانية: أتحدث عن قيمة أخرى لهدوء الليل المظلم وسكونه، حين تكون عيون الغافلين هاجعة في نوم عميق، فإن للوالهين شغل آخر وموعد للحضور مع رب العالمين في حظيرة القدس والكبرياء والعظمة العالية، يتغلبون بعشقهم وولههم المقدس على هتاف النوم، ويقتلعهم العشق والوله من جاذبية الفراش، صافين أقدامهم في حالة ترمز إلى

إظهار العبودية والتسليم المطلق للمحبوب، ويتقلبون بين يديه سبحانه وتعالى في ركوعهم وسجودهم، ويتفكرون في المحيط بعيداً عن الرياء والسمعة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤].

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة العارفين: (إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك، فأعذنا من طردك وإبعادك، واجعلنا من أخص عارفيك وأصلح عبادك، وأصدق طائعيك وأخلص عبادك، يا عظيم يا جليل يا كريم يا منيل، برحمتك ومنك يا أرحم الراحمين).

حيث ينهض هؤلاء المسكونون بالعشق لسيدهم ومولاهم، ينهضون من فراشهم للخلوة مع سيدهم ومعشوقهم، لا يريدون إلا وجهه ورضاه، بدافع العشق والبحث عن الحقيقة الكبرى في الوجود والالتحام معها في

مشهد عشقي عظيم، والبحث عن الطمأنينة والراحة المعنوية والسعادة الحقيقية الكاملة.. والكمال الحقيقي: الروحي والمعنوي، وذلك بالقرب من المعشوق المطلق ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً، ليقفوا في هذه اليقظة الروحية الصافية العظيمة على باب المعشوق جل جلاله، يقرعونه في تذلل وخشوع، متضرعين إليه ليفتح لهم بابه، ويأذن لهم بالدخول إلى حظيرة قدسه، والمثول بين يديه في ساحة جماله ورحمته وجلاله وعظمته وكبريائه، والاقتباس من فيوضات كمال جماله وجلاله، ويعود عليهم بعائدة من عطفه، ويمنحهم من سني مواهبه وجوائزه، فهم في شغل عن النوم بمعشوقهم.. وبتزكية أنفسهم وتطهيرها وتكميلها، وإعلان سيطرة الروح والفكر على الشهوات والكسل، ويعلفون من علف الملكوت ليقبلهم في ضيافته، ويكونون قريبين من حظيرة القدس والطهارة والكمال، ويعلفون من علفها الملكوتي الأقدس، والأنس بالمحبوب الديان سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علوا كبيراً.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة العارفين: (إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم

إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرايع المصافات يردون، قد كشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأنس سرهم، وأمن في مواطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم، وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقرت بإدراك السؤال ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم).

ويقول عليه السلام في مناجاة الراغبين: (إلهي استشفعت بك إليك، واستجرت بك منك، أتيتك طامعاً في إحسانك، راغباً في امتنانك، مستسقياً وابل طولك، مستمطراً غمام فضلك، طالباً مرضاتك، قاصداً جنابك، وارداً شريعة رفدك، ملتمساً سني الخيرات من عندك، وافداً إلى حضرة جمالك، مريداً وجهك، طارقاً بابك، مستكيناً لعظمتك وجلالك، فافعل بي ما أنت أهله من المغفرة والرحمة، ولا تفعل بي ما أنا أهله من العذاب والنقمة، برحمتك يا ارحم الراحمين).

ويقول عليه السلام في مناجاة المطيعين: (اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت).

ويقول عليه السلام في مناجاة المحبين: (بسم الله الرحمن الرحيم. إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك، فابتغى عنك حولا. إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادك، وهيمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك. اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك.. والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم

منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضاك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك علي، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الإسعاد والحظوة عندك، يا مجيب.. يا ارحم الراحمين).

روى الشيخ الصدوق (رحمه الله تعالى) في المجالس عن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ.. أنه قال: (..... وإن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال: يا رب.. يا رب، ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي سلني أعطك، وتوكل علي أكفك).

وفيه عن الإمام الصادق عليه السلام.. أنه قال: (كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: يا بن عمران، كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا بن عمران مطلع على أحبابي، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن

المشاهدة، ويكلموني عن الحضور. يا بن عمران: هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينيك الدموع، في ظلم الليل، وادعني فإنك تجدني قريب مجيب).

ففي ظلام الليل وهدوئه: بعيدا عن الصخب والضجيج، وبعيداً عن قسوة الهموم النهارية في الحياة، بعيداً عن كل ذلك في صحوة الليل الروحية العظيمة، يرق القلب السليم، وتدمع العين الساهرة من أجل المجاهدة والجهاد، وتصفو النفس الطاهرة المتطلعة إلى الكمال الملكوتي الأعلى، ويرتاح الشعور المكدود في ذات الحق، ويصحو الضمير النابض بالحياة، ويحلق الفكر المتنور بنور الحق، يحلق بعيدا... بعيدا في مشاهد الكون الفسيح، وفي مشاهدة ما وراء الطبيعة من القدرة والإبداع والغاية والطريق، وتسبح الروح اللطيفة المكدودة في ذات الحق، ذات التطلعات الإنسانية العالية، تسبح.. لتتعانق مع روح الوجود في الآفاق الروحية العالية فيما وراء الطبيعة والمادة، وتتصافح مع الكائنات الملائكية التي تسبح بحمد ربها في عالم الملكوت، ليمنح التحليق للفكر انطلاقته وانفتاحه وعمقه وامتداده في الكون والحياة، وليكتشف الحقيقة العظمى في عالم الوجود، وليكتشف امتداداتها الكبرى في الحياة، وليكون العبد على بصيرة كاملة في أمور دينه ودنياه وآخرته، وفي أمر سيده

ومولاه رب العزة والجمال والجلال، رب العالمين سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً.

نعم أيها الأحبة الأعزاء: في ظلام الليل وهدوئه، يطير العاشقون بأجنحة العشق في فلك العاشقين إلى معشوقهم، ويكون للقلب في هذا الوقت حضوره، وللذكر وللمناجاة.. عذوبتها وحلاوتها وشفافيتها، وللصلاة خشوعها الذي يسكب في القلب الأنس.. والراحة.. والنور والجمال.. والأمل.. والتفاؤل، ويقطع السالك إلى الله الطريق بأسرع من البرق في أنس وسرور، خاصة مع البكاء خوفا من عقاب الله وخشية منه جل جلاله، ولألم لوعة البعد والفراق، وشوقاً إلى لقاء المحبوب تقدست أسماؤه وآلاؤه سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة المريدين: (بسم الله الرحمن الرحيم. سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله، وما أوضح الحق عند من هديته سبيله، إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك، قرب علينا البعيد، وسهل علينا العسير الشديد، وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون،

وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من فضلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم من صافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصى مقاصدهم حصلوا، فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم رؤوف، وبجذبهم إلى بابه ودود عطوف، أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودك قسماً، وأفضلهم في معرفتك نصيباً، فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي، وبرد لوعتي وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي وغافر زلتي، وقابل توبتي ومجيب دعوتي، وولي عصمتي ومغني فاقتي، ولا تقطعني عنك ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنتي، ويا دنياي وآخرتي، يا أرحم الراحمين).

ويستحب البكاء في صلاة الليل، خاصة في القنوت

والسجود، فإن أقرب ما يكون العبد من الرب ﷻ وهو ساجد باكي، بنص الحديث الشريف عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام، فإن لم يملك العبد البكاء، فعليه بالتباكي.. حتى يتدرب ويحصل على ملكة البكاء الفعلي للأغراض العبادية العظيمة المقدسة سالفة الذكر.

في الوسائل ج٢ ـ ب٢٩ ـ ص ١١٢٢ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إن لم تكن بكاء فتباك).

وقد مدح الله تعالى عباده المؤمنين الذين يبكون خشية منه وشوقاً إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وأفضل الأوقات للدعاء والمناجاة وصلاة الليل، هو وقت السحر.

يقول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: ١٨].

فضل صلاة الليل في القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

وقال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧] (تنبيه: السجدة واجبة).

وقال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا

يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

فضل صلاة الليل في أحاديث أهل البيت عليهم السلام

في الوسائل ـ ج٥ ـ الباب ٣٩ ـ ص٢٦٨ ـ الحديث ١ ـ عن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (كان في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام أن قال: يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها. ثم قال: اللهم أعنه إلى أن قال: وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل).

وفيه ـ ص ٢٧١ ـ الحديث ٣ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (قال النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل: عظني، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، واعلم أن شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه كفه عن أعراض الناس) (وفي حديث آخر: كف الأذى عن الناس).

وفيه ـ ص ٢٧١ ـ الحديث ١٠ ـ قال عليه السلام: (عليكم بصلاة الليل فإنها سنة نبيكم، ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن أجسادكم).

وفيه ـ ص ٢٧٢ ـ الحديث ١٤ ـ قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام: (قيام الليل مصحة للبدن، ومرضاة للرب عز وجل، وتعرض للرحمة، وتمسك بأخلاق النبيين). (النص من البحار).

وفيه ـ الباب ٤٠ ـ ص ٢٨٠ ـ الحديث ٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (ليس منا من لم يصل صلاة الليل) (وفي الحديث ٩: ليس من شيعتنا من لم يصل صلاة الليل).

وفيه ـ ص٢٧٨ ـ الحديث ٢ ـ عن محمد بن سليمان الديلمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (يا سليمان لا تدع صلاة الليل، فإن المغبون من حرم قيام الليل).

وفي رواية المنتخب الحسيني للأدعية والزيارات أضاف عليه السلام: (وقد أوصى الله إلى موسى عليه السلام: قم في ظلمة الليل واجعل قبرك روضة من رياض الجنة).

وفيه ـ ص ٢٧٩ ـ الحديث ٧ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إني لأمقت الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم حتى إذا كان عند الصبح قام يبادر بالصلاة).

وفيه ـ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ـ الحديث ١٣ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (ما من عمل حسن يعمله العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله لم يبين ثوابها لعظيم خطره

عـنـده فـقـال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٦ ـ ١٧]).

وفي المجالس للشيخ الصدوق، قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (ما زال جبرائيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت أن خيار أمتي لن يناموا) (الوسائل ـ ج٥ ـ الباب٣٩ ـ الحديث ٢٥ ـ ص٢٧٤).

فضل صلاة الليل في أحاديث مدرسة الخلفاء

قال عبد الله بن سلام: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت ممن جاءه، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: (أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وقال سلمان الفارسي: قال رسول الله ﷺ: (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد).

وقال سهل بن سعد: جاء جبرائيل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس) (نقلاً عن فقه السنة للسيد سابق ـ ج٢ ـ ص ٢٠٠).

أحكام صلاة الليل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

عدد ركعات صلاة الليل: تتكون صلاة الليل من إحدى عشرة ركعة كالتالي:

ثمان ركعات تسمى نافلة الليل، وتصلى ركعتين.. ركعتين.

ركعتا الشفع.

ركعة الوتر.

تستحب صلاة ركعتين قبل صلاة الليل، وهي مفيدة في قضاء الحوائج.

وتعتبر ركعة الوتر مع الشفع أفضل صلاة الليل، وركعتا الفجر أفضل منهما، ويجوز الاقتصار على الشفع والوتر.. بل على الوتر، خاصة عند ضيق الوقت.

وقت صلاة الليل: يبتدىء وقتها من منتصف الليل إلى

طلوع الفجر الثاني، ومنتصف الليل: هو منتصف الزمان ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر، وأفضله وقت السحر: وهو الثلث الأخير من الليل، وقيل أقل من الثلث، وأفضل السحر ما قرب من الفجر. ويجوز لمن يشق عليه القيام لنافلة الليل في وقتها، لغلبة النوم.. ونحوه، ولذوي الأعذار كالمرض، يجوز لهم تقديمها على وقتها، وينوون التعجيل لا الأداء. وإذا صلى أحد المذكورين نافلة الليل قبل منتصف الليل، ثم استيقظ في وقتها، لم تستحب له إعادتها.

قضاء صلاة الليل: يستحب قضاء صلاة الليل لمن فاتته في وقتها، وإذا تردد أمر صاحب العذر بين تقديمها على وقتها وأن يأتي بها بعد الوقت قضاء.. فالقضاء أفضل، وأفضل أوقات القضاء بعد الزوال.

أحكام صلاة الليل في مدرسة الخلفاء

عدد ركعات صلاة الليل: ليس لصلاة الليل عدد مخصص من الركعات، فهي تتحقق ولو بركعة واحدة بعد صلاة العشاء، والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة.

قالت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان

ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً.

وفي رواية أخرى عنها: كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل عشر ركعات، ويوتر بسجدة. (رواهما البخاري ومسلم).

ويستحب أن يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين.

عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلي.. افتتح صلاته بركعتين خفيفتين.

وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: (إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين) (رواهما مسلم).

وقت صلاة الليل: تجوز صلاة الليل في أول الليل بعد صلاة العشاء، وفي وسطه.. وفي آخره، والأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير من الليل.

قضاء صلاة الليل: روى مسلم عن عائشة أن النبي ﷺ، كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة.

وعند المالكية والحنفية: جميع النوافل إذا خرج وقتها لا

تقضى إلا ركعتي الفجر فإنهما يقضيان إلى الزوال.

قيمة صلاة الليل: عند السحر حينما يرتاح جسم الإنسان، وتهدأ روحه بعد فترة من النوم، ويقوم العبد المؤمن الموحد لصلاة الليل، فإنه يكون في حالة من الحيوية واليقظة الروحية وصحوة الضمير، وصفاء النفس وعدم تكدرها بالشواغل النهارية، فتكون النفس في حالة من التوجه، والقلب في حالة من الحضور، فإذا قام العبد العاشق يصلي لربه وسيده ومعشوقه ويناجيه، فإن القلب يتواطأ مع اللسان، وتتحرك الكلمات في صلاته ومناجاته بين شفتيه في حلاوة وعذوبة روحية، وتنبعث الكلمات من أعماق القلب في صدق وتوجه ويقين، وتنهمر الدموع لتغسل قلبه وروحه وتطهرهما من جميع العوالق، فتتنور أبصار القلوب بضياء نظرها إلي المعشوق الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، حتى تخترق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معادن الكبرياء والعظمة والجلال، وتصير الأرواح معلقة بعز قدسه سبحانه وتعالى، وتبصر أبصار القلوب من أنوار الجمال والجلال والعظمة العالية اللامتناهية ما يزيد في بصر العبد العاشق المتعلق وبصيرته، ويجد العبد لذة العبادة، وتتجلى فتتجلى له حقيقة العبودية.. وقيمتها.

يقول أمير المؤمنين في المناجاة الشعبانية: (إلهي لم يكن لي حول فأنتقل به عن معصيتك إلا في وقت أيقظتني لمحبتك، وكما أردت أن أكون كنت، فشكرتك بإدخالي في كرمك، ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك. إلهي انظر إلى إليَّ نظر من ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأطاعك، يا قريباً لا يبعد عن المغتر به، ويا جواداً لا يبخل عمن رجا ثوابه. إلهي هب لي قلباً يدنيه منك شوقه، ولساناً يرفع إليك صدقه، ونظراً يقربه منك حقه. إلهي إن من تعرف بك غير مجهول، ومن لاذ بك غير مخذول، ومن أقبلت عليه غير مملوك «مملول». إلهي إن من انتهج بك لمستنير، وإن من اعتصم بك لمستجير، وقد لذت بك يا إلهي فلا تخيب ظني من رحمتك، ولا تحجبني عن رأفتك. إلهي أقمني في أهل ولايتك، مقام من رجا الزيادة من محبتك، إلهي وألهمني ولها بذكرك إلى ذكرك، واجعل همتي في روح نجاح أسمائك ومحل قدسك، إلهي بك عليك إلا ألحقتني بمحل أهل طاعتك، والمثوى الصالح من مرضاتك، فإني لا أقدر لنفسي دفعاً ولا أملك لها نفعاً. إلهي أنا عبدك الضعيف المذنب ومملوكك المنيب «المعيب»، فلا تجعلني ممن صرفت عنه وجهك، وحجبه سهوه عن عفوك. إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى

تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك. إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك، ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سراً وعمل لك جهراً).

أيها الأحبة الأعزاء: في صلاة الليل.. تتصل الروح بخالق الوجود في ذاته المقدسة: الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.. وهو أرحم الراحمين، اتصال العاشق بالمعشوق، وينفتح العقل والقلب ببصيرة وإخلاص على صفاته العليا وأسمائه الحسنى وآياته الكبرى.. تأملاً وتفكراً ومعرفة، ويحس المصلي السالك إلى الله الحفي المهيمن، يحس بعبادة الكون كله لمبدعه العظيم البارىء القدوس الأكرم جل جلاله، فيكون للعبادة الأثر الأعمق في تطهير الروح وتكميلها، وفي صفات العبد وسلوكه في الحياة وتهذيبهما، ويقتبس السالك في صلاة الليل من جذوة الملكوت الأعلى وأنواره العظيمة، ويعلف من علف الملكوت في حظيرة القدس للملك القدوس، فيتطهر القلب.. وتصفو النفس.. وتتهذب الأخلاق.. وتقوى الإرادة، وتشتد جذوة الإيمان، ويضاء العقل والقلب ويبصرا البعيد.. البعيد في عالم الوجود والعلم والمعرفة والمشاهدة، بفضل شعاع هذه العبادة الليلية العظيمة، التي

تدفع الإنسان قدماً إلى مواقع متقدمة في الكمال الإنساني، والتوازن العاطفي والنفسي والفكري والاجتماعي، وتحمله على الاستقامة في التفكير والعمل، والصمود والثبات والتقدم في المواقف، والإخلاص في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الحق بعيدا عن الرياء والسمعة، ويكون المؤثر الحقيقي في تربية الذات وتكميلها هو الله وحده لا شريك له، في عمليات روحية عبادية متصاعدة.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: (إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء، والليل والنهار، والإعلان والإسرار، وفي السراء والضراء، وآنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكي، والعمل المرضي، وجازنا بالميزان الوفي).

ويقول عليه السلام في مناجاة الذاكرين: (إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئن القلوب إلا بذكرك، ولا تسكن النفوس إلا عند رؤيتك، أنت المسبح في كل مكان، والمعبود في كل زمان، والموجود في كل أوان، والمدعو بكل لسان، والمعظم في كل جنان، واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة

بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك).

ويقول عليه السلام في مناجاة المعتصمين: (إلهي فلا تخلنا من حمايتك، ولا تعرنا من رعايتك، وذدنا عن موارد الهلكة، فإنا بعينك وفي كنفك، ولك أسأل بأهل خاصتك من ملائكتك والصالحين من بريتك، أن تجعل علينا واقية تنجينا من الهلكات، وتجنبنا من الآفات، وتكننا من دواهي المصيبات، وأن تنزل علينا من سكينتك، وأن تغشي وجوهنا بأنوار محبتك، وأن تؤوينا إلى شديد ركنك، وأن تحوينا في أكناف عصمتك، برأفتك ورحمتك يا أرحم الراحمين).

فوائد صلاة الليل

ولصلاة الليل عدة فوائد عديدة في تربية الذات وتكميلها، أذكر منها التالي:

الفائدة الأولى: تزكية النفوس وتطهيرها وإعدادها لكرامة القرب وشرف الحضور، وأن قيام العبد خاشعاً متذللاً بين يدي الله سبحانه وتعالى في ظلمة الليل والناس نيام، يدل على تمرد العبد على الحاجات المادية للنفس مثل النوم والاسترخاء، وإيثاره القيم المعنوية عليها، مما

يؤهله لكرامة القرب وشرف الحضور في ساحة الملك القدوس سبحانه وتعالى والإعتلاف من علف الملكوت مع المعتلفين فيها.

ويعد الاستغفار من أهم الأذكار في صلاة الليل.

قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

وفي الوسائل ج٢ ـ الباب ٢٣ ـ الحديث ٥ ـ ص ١١٩٨ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار).

وفيه الحديث٢ ـ ص ١١٩٨ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (خير الدعاء الاستغفار).

وفيه الباب ٢٦ ـ الحديث ١ ـ ص ١٢٠١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (الاستغفار وقول لا إله إلا الله خير العبادة).

أيها الأحبة الأعزاء: إن الاستغفار يعني التنبه إلى أخطاء الذات وضعفها وفقرها، ومعرفة اليد الكريمة الغنية التي أبدعتها وأحنت عليها بالجود والكرم واللطف والحنان.. وقوتها، والميل الأكيد بقوة إليها ومحبتها وطاعتها بصدق

وإخلاص نية، وبالتالي التراجع الصادق المخلص عن الخطايا والذنوب والعمل السيئ، وعن الشر وعن كل ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى، والعزم الأكيد الصادق المخلص على رفض الانحراف عن الحق والعدل والخير، ومقاومة الانحراف في المجتمع للقضاء التام عليه وإخفائه من صفحة الحياة، والسعي الصادق الحثيث بقوة للحصول على رضا الرب الغفور الرحيم سبحانه وتعالى، وتجنب التقصير والإبلاء الحسن في الكدح إليه، والعزيمة الجادة الصادقة المخلصة في الدعوة إلى الحق والسعي لإظهاره ونشره في الحياة وتنويرها بنوره، والسعي لإقامة العدل والتزام الصدق ونشر الحق في الحياة بين الناس جميعا دون تمييز بينهم، والحرص على التقدم والجود والعطاء بما في اليد، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، والتخلص من العقد النفسية والصفات الذميمة والتحلي بالأخلاق الحسنة الجميلة الفاضلة النبيلة.

ويساعد الاستغفار على إيجاد الصحة النفسية والتوازن العاطفي والقوة، ويساعد على التقدم إلى الأمام بخطى ثابتة، في سلم التقدم والتكامل الإنساني، وفي سلم العطاء المتميز النقي والمساهمة في المجتمع والحياة.

الفائدة الثانية: إن قيام العبد بين يدي الله سبحانه وتعالى

في الليل المظلم، ومناجاته بعيداً عن أعين الناس وأسماعهم، يفتح عقل العبد وقلبه على الحقيقة بدون حواجز أو عقد نفسية، ويهيأ العبد لتلقي الفيض الإلهي والاقتباس من نوره الأنور ومن قدسه سبحانه وتقدست أسماؤه وآلاؤه وصفاته، ويعصمه من وساوس الشيطان الغوي الرجيم، ومن مكره وخدعه التي تذهب بالإنسان يميناً وشمالاً عن الحق والحقيقة، وتضعف نفسه وتعمي بصيرته، مما يساعد العبد على الاقتراب من الحق والابتعاد عن الباطل، ويساعده في التغلب على الغموض والشبهات والمغالطات، ويساعده على معرفة أدق المسائل وأعقدها كما دلت على ذلك التجارب وقررته النصوص.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (إن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت النور في قلبه).

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الفائدة الثالثة: الإعداد لتحمل المشاق والأعباء الثقيلة.

قال الله تعالى مخاطباً الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ

وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٥].

فقد أمر الله جل جلاله الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، أن يقاوم التحديات من الإيذاء والنوائب والكرب العظام، يقاومها.. بصلاة الليل، التي تشد من عزيمته على مواجهة المصاعب، من خلال التعبئة الروحية التي تتمثل في صلاة الليل وتلاوة القرآن، وليس بالتزمل والنوم، ليكون اللقاء بالله سبحانه وتعالى وسيلة من وسائل الشعور العميق بالحضور الإلهي وبالقوة والصلابة، مما يجعل الإنسان في مستوى المسؤولية، ويشعره بالقوة أمام التحديات بفضل الارتباط بالله العظيم صاحب القوة المطلقة في الوجود، وينير الطريق الشاق الطويل بنور الهداية والمعرفة ويؤنسه من الوحشة، ويحفظ الإنسان من التيه والضياع والوحشة في الظلمات الحالكة التي تحف بالطريق، ويسهل على الإنسان عملية السير وقطع الطريق بأمن وسلام.

وقد أثبتت التجارب: أن الشخصيات المؤثرة في الواقع والتأريخ والحياة، لهم أوقات خلوة يعتقون فيها أنفسهم من أسر الواقع والهموم والمشاغل اليومية الصغيرة، ليتيحوا لأنفسهم فرصة أفضل للمراجعة والتأمل والتحليل الموضوعي العميق للواقع والمواقف وسائر الأمور، من أجل التثبيت والتصحيح والتطوير، لأن الاستغراق في الواقع قد يحجب الرؤية الموضوعية ورؤية ما هو أكبر وما هو أهم في القريب.. والبعيد، ولأن الاستغراق يجعل النفس تألف الواقع القائم فلا

تحاول تغييره أو تطويره، وبالتالي فإن الخلوة والانقطاع هما وحديهما اللذين يتيحان للإنسان ـ خاصة القادة والمسؤولين ـ يتيحان لهم الفرصة الحقيقية والجادة للمراجعة والتأمل والتحليل الموضوعي المعمق، ويفتحان السبيل لتثبيت الصحيح، وتصحيح الخطأ، وتطوير الواقع عن إيمان وقناعة ورؤية واضحة وبصيرة في فصل الأمور وبسطها وتسييرها وتحريكها، وهذا يؤكد لنا أهمية التبصر في الأمور، والنقد العلمي الموضوعي للأداء.

وتعتبر صلاة الليل هي الأفضل في هذا الشأن: لما تقدمه صلاة الليل من صفاء السريرة.. وشرف الغاية.. ونقاء النفس.. وطهارتها، ولما تقدمه صلاة الليل من انفتاح العقل والقلب، والتعامل مع روح الكون والحياة وحقائقهما ووقائعهما الكبيرة بشفافية وموضوعية ونزاهة وإخلاص وانفتاح وحرص لا نظير لها عند إنسان غير رهبان الليل أبداً. فصلاة الليل هي المؤهل الأعظم في ميدان القيادة والتربية، والدفع بعجلة البناء والتقدم والعطاء في الحياة بصدق وصفاء وإخلاص نية.

تحذير في غاية الجد والخطورة: علينا أيها الأحبة الأعزاء ونحن نتحدث عن عبادة الليل، عبادة السر والتمحيص، أن نحذر من الغرور ومن عبادة النفس والذات

المتضخمة تحت غطاء العبادة والعلم والعنصر الأفضل وصلاة الليل، كما فعل إبليس لعنه الله، الذي تضخمت نفسه في نفسه فخسر دينه وخسر نفسه خسراناً مبيناً، وأصبح شيطان الغواية والإضلال في الأرض بعد أن كان في صفوف الملائكة المقدسين. وكما فعل (بلعم بن باعورا) من بني (هاب بن لوط) الذي قال الله تعالى مخاطباً الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، في التحذير من مصيره المخزي البائس الشؤم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

أيها الأحبة الأعزاء: علينا أن نأخذ الحذر من وجهين رئيسيين.. وهما كالتالي:

الوجه الأول: أن يصيبنا الغرور بأنفسنا من جراء عبادتنا، فنعتقد بأن لنا مكانة عند الله سبحانه وتعالى وميزة على الناس، كما فعل إبليس اللعين، الذي تضخمت نفسه وتكبر على آدم عليه السلام، وعصى ربه الذي خلقه وإليه معاده بترك السجود لآدم عليه السلام، فخسر بذلك دينه ونفسه خسراناً مبيناً.

في الكافي الشريف ـ ج ٢ ـ باب: الاعتراف بالتقصير ـ الحديث ٣ ـ عن أبي الحسن عليه السلام.. أنه قال: (إن رجلا في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة ثم قرب قرباناً فلم يقبل منه، فقال لنفسه: ما أتيت إلا منك، وما الذنب إلا لك. قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ذمك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة).

الوجه الثاني: أن نخالف الحق ونصر على مخالفته، ثم نوهم أنفسنا بأننا من عباد الليل وقراء القرآن الكريم كما فعل الخوارج، الذين خرجوا على إمام زمانهم وقاتلوه، وخدعوا أنفسهم بما أظهروه من العبادة، وما عبدوا سوى أنفسهم الأمارة بالسوء.

نوم القيلولة وصلاة الليل: قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: (تعاونوا بأكل السحور على صيام النهار، وبالنوم عند القيلولة على قيام الليل).

أيها الأحبة الأعزاء: إن صلاة الليل تحتاج إلى التركيز وحضور القلب، وهذا من مميزاتها الأساسية، والنعاس والإرهاق يفقدان الصلاة روحها ورونقها، وقد اكتشف الباحثون أن ساعة واحدة من القيلولة العميقة أثناء النهار.. تكون مفيدة كالنوم طوال الليل، إذا تمكن الشخص من النوم

جيدا ومن رؤية الأحلام فيها، وتكون بنفس فعالية وجودة النوم الليلي فيما يتعلق بالتعلم والوظائف الإدراكية والاستيعابية، فعلى الذين يرغبون في التوفيق لصلاة الليل بحضور القلب، عليهم بنوم القيلولة كما نصحهم بذلك سيد العباد والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، رزقنا الله التواب الرحيم السير على نهجه والعمل بسنته، وفي الآخرة شفاعته ومرافقته في الجنة، إنه غفور حليم.

أيها الأحبة الأعزاء: هذه بضاعتي في تطفلي على الحديث عن صلاة الليل فخر المؤمنين وشرف الدنيا والآخرة، في سياق البحث في مضامين سورة الضحى الشريفة المباركة، ومن أراد الحقيقة والمزيد، فعليه الرجوع إلى مؤلفات أساطين السلوك والعرفان مثل ابن طاوُس والتبريزي والإمام الخميني رحمهم الله جميعاً.

الخاصية الثالثة ـ الفجور والمكر السيئ: في الوقت الذي يهجع الغافلون في سبات نوم عميق، ويسبح الوالهون بأجنحة العشق في حظيرة القدس والكبرياء والعظمة والجمال، بصلاتهم ودعائهم ومناجاتهم وبتلاوة القرآن كتاب ربهم، فإنه توجد فئة من الناس البطالين والمغرورين، يوظفون بحمقهم وجهلهم ظلام الليل وستر الله المرخى على العباد فيه،

يوظفونه في الفجور والخيانة والظلم والملذات المحرمة والرغبات الشيطانية، وتوجد فئة من الناس المجرمين.. يوظفون ظلام الليل وستر الله المرخى على الناس فيه، يوظفونه في المكر السيئ ورسم الدسائس الشيطانية والمؤامرات الإجرامية الخبيثة للكيد بالأبرياء من الناس والصالحين من المؤمنين والإضرار بهم، ثم ينامون عن صلاة الفجر كالشياطين، وينفذون مخططاتهم الإجرامية في النهار بمساعدة الآثمين والطائشين المعتدين والهمج الرعاع من المغرر بهم والمغرورين الغافلين عن ربهم وحسابه الدقيق في يوم القيامة.. وانتقامه في الدنيا والآخرة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٧].

وهذا لا ينفي وجود وحوش وثعابين الليل وشياطين الفجر والنهار، الذين يخططون بالنهار وينفذون السرقات والاغتيالات والمداهمات وأشبهها في الليل، فهؤلاء المعتوهون جميعاً، يقضون الليل والنهار في عبادة النفس والشيطان والإساءة إلى الناس والإضرار بهم، بغض النظر

عن زمان التخطيط والتنفيذ أيهما يكون بالليل وأيهما يكون بالنهار، نعوذ بالله الغياث كاشف الضر من شر ما خلق من الجن والانس، ومن شر غاسق وهو الليل إذا وقب. وصدق الله القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي نفس الوقت توجد فئة من المتقين: لا تلهيهم العبادة عن تحسس أوضاع الفقراء والمساكين والمحرومين والمهمومين والمستضعفين من الناس، والسعي لمواساتهم وللتخفيف عن مشاعرهم وآلامهم وتحسين أوضاعهم وتطويرها، فمن وراء ستار الليل المظلم وسكونه ووقاره وخشوعه، وبين الجدران المغلقة المقفلة على أصحابها، يوجد أنين الجياع والمحرومين، وآهات المعذبين والجرحى والفاقدين، لا يعلمهم إلا الله الرقيب الرؤوف الرحيم ويراهم، فيخرج هؤلاء الأتقياء في ظلام الليل الدامس لخدمة أولئك البشر والتخفيف من آلامهم ومواساتهم، لا تراهم عيون البشر، وتلحظهم عين الله الواحد الماجد السميع البصير الحي القيوم، ويشكرهم.. وهو الشكور الغني الحميد.

نعم.. أيها الأحبة الأعزاء: يخرج هؤلاء الأتقياء الصالحون من بيوتهم في ظلام الليل الدامس في الشتاء القارص والصيف الحار، يريدون وجه الله ويخافون عقابه،

ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، ترمقهم عيون السماء لا غير.. بالتبجيل والرضا، يخرجون على ذلك الحال، ليقوموا بوظيفتهم الإنسانية الملائكية العظيمة، في التخفيف عن أولئك المحرومين والمعذبين، وليفيضوا عليهم من مشاعرهم الإنسانية المرهفة، وليواسوهم في آلامهم وأحزانهم وليخففوها عنهم، لا يقصدون بذلك سوى وجه الله تعالى ويرجون رحمته، ويخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، أولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ١٢].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

في الكافي الشريف ـ ج٢ ـ باب: السعي في حاجة

المؤمن ـ الحديث ٢ ص ١٩٧ ـ عن معمر بن خلاد.. قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: (إن لله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة، ومن أدخل على مؤمن سروراً فرح الله قلبه يوم القيامة).

وفيه ـ الحديث ١٠ ـ ص١٩٩ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (قال الله عز وجل: الخلق عيالي، فأحبهم إلي ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم).

وفيه ـ باب تفريج كرب المؤمن ـ الحديث ٣ ـ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ـ عن مسمع أبي سيار.. قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (من نفس عن مؤمن كربة.. نفس الله عنه كرب الآخرة وخرج من قبره ثلج الفؤاد (يعني: فرح القلب مطمئناً)، ومن أطعمه من جوع.. أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقاه شربة.. سقاه الله من الرحيق المختوم).

في كنز العمال ـ ج٣ ـ ص١٧٢ ـ الحديث ٦٠٢٠ ـ (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالصائم النهار القائم الليل).

عن سفيان بن عيينة عن محمد بن شهاب الزهري: أنه رأى علي بن الحسين عليه السلام في ليلة باردة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي فقال: يا بن رسول الله ما هذا؟ قال: أريد سفراً

أعددت له زاداً أحمله إلى موضع حريز (يعني: موضع حصين)، قال: فهذا غلامي يحمل عنك، فأبى ﷺ، فقال: دعني أحمله عنك فإني أرفعك عن حمله، فقال: لكني لا أرفع نفسي عما ينجيني من سفري ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحق الله لما مضيت لحاجتك وتركتني، فلما كان بعد أيام لقيه ابن شهاب وقال: يا بن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثرا، قال ﷺ، بلى يا زهري، ليس هو كما ظننت ولكنه الموت وله استعد، إنما الاستعداد للموت تجنب الحرام وبذل الندى في الخير.

قيمة القسم بالليل.. والنهار: لهذا القسم الإلهي بالليل والنهار قيمة عظيمة، نحاول أن نتبينها من خلال النقاط التالية:

القيمة الأولى: نتبين في هذا القسم الإلهي العظيم بالليل.. والنهار، الحث على النظر والتدبر في الآيات الكونية والبحث فيها عن الجوانب الثلاثة الرئيسية المهمة.. وهي:

الجانب الأول ـ البحث العلمي والتقدم التكنولوجي: وموضوعه الجانب المادي من عالم الطبيعة الذي يتصل به الإنسان وينفتح عليه بصورة مباشرة، ويدركه بحواسه الخمس

وامتداداتها التكنولوجية كالمكرسكوب والتلسكوب، والامتدادات التكنولوجية الأخرى لسائر أعضاء الإنسان، وتتصل معرفة هذا الجانب والاهتمام به ببقاء الإنسان وتطور حياته الطبيعية ومصالحه المادية وتنميتها، وقد سخر الله جل جلاله بكرمه وجوده عالم الطبيعة للإنسان وامتن عليه بذلك، وطالبه بالنظر فيه ومعرفة قوانينه وتسخيره فيما يعود عليه بالمصلحة في حياته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢ ـ ١٣].

حيث نجد في هذه الآيات النقاط التالية.. وهي:

النقطة الأولى: التأكيد على تسخير الطبيعة من الله تعالى للإنسان.

النقطة الثانية: أمر الله جل جلاله للإنسان وحثه على التفكر في الطبيعة ومعرفة أسرارها.

النقطة الثالثة: أمر الله جل جلاله للإنسان وحثه على تأدية الشكر لله البديع الذي فطر السماوات والأرض وسخرها جميعاً للإنسان بقدرته ورحمته وجوده وكرمه.

الجانب الثاني ـ الجانب الملكوتي للطبيعة: وهو الجانب الدال على الله سبحانه وتعالى وعلى صفاته واليوم الآخر وعلى الطريق إليه جل جلاله. وفي هذا الجانب نجد الحث من الله تعالى على معرفة ما وراء الطبيعة من خلال النظر في الطبيعة نفسها، وعدم الاقتصار على العلوم الطبيعية.. وعلى التقدم التكنولوجي في معرفة الطبيعة وتسخيرها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥ ـ ٦].

وقال الله تعالى محذراً الإنسان من الاقتصار على علوم الدنيا ونسيان الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٧ ـ ٩].

الجانب الثالث ـ الجانب الفني والجمالي: الحث على التأمل في الجوانب الجمالية في عالم الوجود والبحث عنها وتنمية الحس الفني والذائقة الجمالية لدى الإنسان، وهو الجانب الذي يخدم الأدب والفن وينمي الحس الفني والذائقة الجمالية، وهو في غاية الأهمية في التربية الإيمانية والسير إلى الله تعالى كما أوضحت ذلك قبل قليل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٤ ـ ٦].

وقال الله تعالى ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

القيمة الثانية للقسم بالليل.. والنهار: ينبهنا القسم بالليل.. والنهار وما جاء في سياق السورة الشريفة المباركة من تناول ظاهرة الوحي والنبوة، ينبهنا القسم بذلك إلى ضرورة البحث العلمي الموضوعي الرزين في ظاهرة الوحي والنبوة، لمعرفة الحقيقة الموضوعية الصادقة في المسألتين، خاصة وأن المسألتين تتعلقان بتحديد طريق الإنسان وسلوكه العام والخاص في الحياة، وتتعلقان بتحديد مصيره وعلاقته بخالقه وخالق كل موجود، وبالتالي فإن مسألة الوحي والنبوة، يجب أن تحتلا أقصى درجات الجد والاهتمام لدى الإنسان العاقل الرشيد، ولا يمكن لعاقل رشيد من الناس، حريص على نفسه، ويسعى من أجل راحتها وسعادتها، وهو يدرك حقيقة ما تعنيه المسألتين، لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يتجاهل شأن مسألتي الوحي والنبوة، ويهمل البحث فيهما بعد ما جاءته البينات على لسان الوحي وسيرة

النبوة والأنبياء، قبل أن يصل إلى رأي قاطع فيهما، ولا يمكن لإنسان عاقل رشيد: أن يصرفه شيء من أمور الدنيا وهمومها ومشاكلها عن النظر والبحث في هذا الموضوع المهم والخطير جداً في نتائجه على حياة الإنسان في الدنيا ومصيره في الآخرة. وقد تناولت الموضوع بكثير من التفصيل في بحث آخر، لهذا أكتفي بهذا المقدار اليسير من الموضوع في هذا البحث.

القيمة الثالثة للقسم بالليل.. والنهار: التنبيه من خلال القسم على النعم العظيمة التي أنعم الله الرب.. المنعم.. الجواد.. الكريم.. بها على الإنسان، لضمان أسباب الحياة المريحة والرفاهية والتقدم والسعادة له في الدنيا والآخرة، حيث يكون الإنسان بحاجة إلى السعي والحركة فيما سخره الله له بالنهار، وبحاجة إلى الهدوء والاسترخاء والنوم ليلاً، فتتم نعمة الله البر الرحيم على الإنسان في الحياة من خلال الليل.. والنهار، في تنوع خصائصهما وجماليتهما وجماليات وتأثيرهما في الإنسان ورسالته وغايته في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ

ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٢ ـ ٧٣].

والخلاصة: إن الليل.. والنهار نعمتان عظيمتان، تستوجبان من العبد الحمد.. والثناء.. والشكر.. للرب المنعم الذي أنعم عليه بهما.

القيمة الرابعة للقسم بالليل.. والنهار: تنمية الشعور الوجداني والحس الجمالي لدى الإنسان، وقد سبق البحث قبل قليل في جمالية النهار ولا حاجة للتكرار، وأشير هنا باختصار شديد إلى جمالية الليل، المتمثل في السماء وتلألؤ نجومها وتوزيعها، ويستحب من الناحية الشرعية كثرة النظر إلى السماء أثناء الليل خاصة مع صلاة الليل وتلاوة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا

سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤].

وقد روي من سيرة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنهما كانا يخرجان بين ركعات صلاة الليل وينظران إلى السماء ويتلوان الآيات الخمس من سورة آل عمران السابقة الذكر.

أيها الأحبة الأعزاء: من جمالية الليل الهدوء المخيم على المحيط وسكونه في الظلام، وما يوحي به من الوقار والهيبة، ويكون لحركة الأشياء ومواد الطبيعة سحره الخاص وتأثيره العميق في النفس في ذلك الظلام والسكون والوقار، مثل جريان الماء في البحار والأنهار، وهبوب الرياح وخريرهما، وحفيف الشجر والطير، وضوء القمر والأنوار الخافتة من بعد، وظهور الأشياء من بينها وإيحاءاتها، فإن لليل هيبة ووقار وسحر وأنس خاص وتأثير متميز في النفس، ولحركة الأشياء فيه جمال وسحر وتأثير غريب في نفس الإنسان، وربما في غيره من الكائنات الحية استناداً إلى رأي المدرسة الموضوعية في الجمال، وقد وجدنا بعض المصاديق في أقوال بعض الشعراء.

هذا بالإضافة إلى الجمال المعنوي المتمثل في الطاعة والمناجاة وفعل الخير والناس نيام، وإنتاج ذلك من الصدق والإخلاص، والمتمثل في التأمل والتفكر والتدبر في الوجود والحياة، وحسن التدبير لشؤون النهار، وما ينتج عن ذلك من تشريف الإنسان ورفعته من حضيض المادة إلى الملكوت الأعلى، ولا شك أن الجمال المعنوي أكثر تأثيراً في النفس وتشريفاً لها من الجمال المادي، وأن جمال الليل أكثر تأثيراً في النفس وتشريفاً لها من جمال النهار.

أيها الأحبة الأعزاء: إنني في الوقت الذي أشعر فيه بالتأثير البناء العظيم والمتميز لجمال الليل المتمثل في العبادات وفعل الخير والمكر الحسن في النفس وتشريفها، فإني أشعر بالقدر نفسه بالتأثير التخريبي العظيم والتميز للقبح الليلي المتمثل في الفجور والخيانة والمكر السيئ في تخريب النفس وهدم إنسانية الإنسان وكرامته. فيا أيها الغافلون المحرومون من الكرامة وتذوق الجمال: أفيقوا قبل فوات الأوان.. أفيقوا قبل فوات الأوان.. أفيقوا قبل فوات الأوان.

القيمة الخامسة للقسم بالليل.. والنهار: إبراز قيمة التوازن في نظام الحياة بين الليل.. والنهار، بين الحركة في النهار التي تضمن للحياة قيامها واستمرارها وتقدمها، وبين

السكون والراحة والطمأنينة في الليل، ذلك التوازن الذي يضمن للحركة في الحياة قوتها ونشاطها وحيويتها، ويضمن للإنسان بالإضافة إلى التكامل بين حاجاته المادية، التكامل بين حاجاته المادية والمعنوية، وبين حاجته إلى الألم والحزن والمعاناة، وحاجته إلى الفرح والطمأنينة والسكون، وذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق سعادته في الدنيا والآخرة.

وفي ختام البحث في المحور الأول: فإني لأرجو من الله العلي القدير، أن يكون قد وفقني من خلال الوقوف على بعض خصائص الليل. . والنهار ـ حسب ما يسمح به المقام ـ أن يكون قد وفقني لإبراز قيمة القسم الإلهي العظيم بالليل. . والنهار في سورة الضحى الشريفة المباركة إنه واسع قدير.

المحور الثاني

تطمين الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وتسليته

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٣ ـ ٥].

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

وَدَّعَكَ: تركك وجفاك.

قَلَى: لها معنيان، وهما:

المعنى الأول: الرمي.

المعنى الثاني: شدة البغض والكراهية.

ويرى الراغب الأصفهاني: بأن المعنيين يعودان إلى أصل واحد، ففي القلي: كأن القلب يرمي (المقلو) إلى خارجه.. فلا يقبله.

وهذه الآية هي جواب القسم السابق بالليل والنهار في السورة الشريفة المباركة.

أي: إن الله جل جلاله أقسم بالليل.. والنهار، على أن الفترة التي توقف فيها الوحي، لم تكن عن ترك ولا جفاء ولا بغض كما يزعم المشركون الذين يسعون دائماً لإيذاء الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بكل سبيل، وكما يفعل دائماً أصحاب المشاريع المضادة والأفق الضيق مع المصلحين الغيورين على دينهم وأمتهم وأوطانهم، والآية الشريفة المباركة تلفت النظر إلى سلوك هؤلاء الأجلاف مع العظماء أمثال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ومع غيره من العظماء والشرفاء والمصلحين والغيارى على الدين والأمة والأوطان والتحذير منه.

دلالات الآية الشريفة المباركة

الدلالة الأولى: نفي صدور الفعل وهو «القلي» بالكلية عن الله جل جلاله لبعده وحبيبه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

الدلالة الثانية: تبشير الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بالكرامة الإلهية في الحال والمستقبل.

الدلالة الثالثة: إن الله جل جلاله لا يتخلى عن رسله ولا عن عباده المؤمنين الصالحين المصلحين، أمام النظرات الحادة الحاقدة، والمواقف العدائية للمشركين والظالمين والطواغيت وغيرهم من القوى المضادة وحملاتهم الإعلامية، وأن عباده دائماً مشمولون بلطفه ورعايته الخاصة لهم وعنايته بهم ورحمته لهم، وهم دائماً في كنف حمايته ومحبته لهم، وهم قريبون من فيوضات رحمته ورضوانه ونصره لهم.

وإيراد اسم الرب في الآية الشريفة المباركة: مع إضافته إلى ضميره ﷺ (ربك)، يدل على كمال الرحمة والعناية واللطف والحماية المشار إليها.

الدلالة الرابعة: إن توقف الوحي لفترة قصيرة من الزمن كان لمصلحة يعلمها الله جل جلاله.. ولحكمة، وقد تبين لنا في البحث بعض جوانب الحكمة، وسوف يتبين لنا بتوفيق الله تعالى المزيد، وليس كما يقول أصحاب المشاريع المضادة والنفوس المريضة، الذين يبحثون عن كل سبيل لإيذاء العظماء والشرفاء والمصلحين، وتعطيل دورهم الإصلاحي والتطويري في الحياة، أولئك الأعداء الذين يقلبون الحقائق رأساً على عقب بخلاف العقل والمنطق وبدون أدنى واقعية في الحكم على الأشياء والتصرف، كل ذلك في سبيل تحقيق

أهدافهم الأنانية الخبيثة.

يقول بعض هؤلاء الأعداء المهووسين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ما هو خلاف الواقع والمنطق.. يقولون: بأن الله تعالى أبغض عبده ورسوله وأحب الخلق إليه محمد ابن عبد الله ﷺ، وأن الناموس «أي الوحي» تخلى عنه، ولو فكروا بعقولهم بعيداً عن أهوائهم ومشتهياتهم المريضة، لوجدوا الحقيقة واضحة كنور الصباح، بأن محمد بن عبد الله ﷺ، هو رسول الله الهادي الرؤوف، وأقرب الناس إلى الله تعالى وأحبهم إليه، ولكن الجهل والتعصب أضلهم وأعمى قلوبهم وأبصارهم، وجعلهم يبصرون الأمور على غير حقيقتها وواقعها، كما هو الحال لكل من هو على شاكلتهم في كل زمان ومكان، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الدلالة الخامسة: تدل الآية الشريفة المباركة على قصر النظر والسطحية لدى الأشخاص الذين يفهمون الخطوات السلبية في التربية والإصلاح والمقاومة: مثل توقف الوحي لفترة من الزمن على أنها ضعف أو انسحاب أو تخلي عن المسؤولية أو اختلاف وعداوات أو غير ذلك من التأويلات

والإجتهادات الباطلة، وتوضح هذه الآية الشريفة المباركة، أهمية الخطوات السلبية في التربية والإصلاح والمقاومة، وأن المصلح يدور مدار المصلحة، ولا يجمد على أسلوب أو شكل واحد، وقد مارس الإمام الرضا عليه السلام هذا الأسلوب للتغلب على غدر المأمون، حين اشترط لقبول ولاية العهد عدم مشاركته في صناعة القرار، كما مارسه الإمام الحسين عليه السلام من قبل، حينما أحل من الإحرام في يوم التروية، وهو اليوم الثامن من المحرم، اليوم الذي يستعد فيه الحجاج للخروج إلى منى، أحلّ الإمام الحسين عليه السلام من إحرامه، وجعل حجته عمرة مفردة، وخرج بعياله وأصحابه من مكة متوجهاً إلى العراق، وأرجو أن لا يوجد أحد من الحمقى.. فيقول: بأن الإمام الحسين عليه السلام تلاعب بالعبادات من أجل أغراض سياسية !!

الدروس التي نستفيدها من الآية الشريفة المباركة

الدرس الأول: الانتباه إلى الأساليب الخبيثة لأصحاب المشاريع المضادة، والحذر من دسائسهم الماكرة ومخططاتهم الشيطانية، وعدم الوقوع في شركهم الذي ينصبونه لكل مؤمن ومواطن شريف، حيث ينبغي ترك التفاعل الإيجابي مع تحركاتهم الشيطانية الخبيثة، وأراجيفهم الباطلة، وإعلامهم

الزائف الخبيث، والوقوف بوعي وبصيرة وقوة إرادة، ضد تلك الأنشطة الخبيثة التي يهدفون من ورائها للإيقاع بالمؤمنين والمواطنين الشرفاء، والدسيسة بينهم لإعاقة كل نشاط إسلامي ووطني جاد في الإصلاح والتطوير، وكل نشاط من شأنه إحقاق الحق وإقامة العدل بين الناس، لأنهم يعيشون على الباطل والإمتيازات المحرمة الظالمة والسرقة والاغتصاب، ولا يريدون لهذا الواقع الظالم المظلم أن يتغير أو يتبدل، ولهذا فهم يقفون ضد كل تغيير أو تبديل من شأنه أن يفقدهم تلك الامتيازات المحرمة ويمنع السرقة والاغتصاب للحقوق أو يقلل منها، ويحركون أتباعهم الأوباش من الطراطير والمنتفعين لتحقيق أهدافهم والوقوف إلى صفهم بكل وسيلة في أيديهم إعلامية أو سياسية أو غيرها، ولا يرتدعون عن استخدام العنف والإرهاب وكل وسيلة قذرة لتحقيق أهدافهم وأغراضهم الخبيثة وغير المشروعة، على حساب الحق والحقوق، والوطن والأمة والشعب، والمصالح العامة الإسلامية والوطنية، وعلى حساب التطور والتطوير في الأمة والأوطان.

الدرس الثاني: حاجة المصلحين إلى الدعم والمساندة المادية والمعنوية، لكي يستطيعوا الوقوف في وجه المخططات المضادة على طريق ذات الشوكة. فقد كان

الوحي زاد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وسقياه في طريق ذات الشوكة، يتقوى به على مواجهة العصبية الجاهلية والكيد والأذى من طغاة المشركين وجهلة المستضعفين، وقد وجدنا أن السورة تزخر بالفيض العظيم من المحبة والود والرحمة والحنان والرضا من الله ذي الجلال والإكرام على عبده وحبيبه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، وفيها تسلية وترويح لنفس الرسول الأعظم الأكرم ﷺ الشريفة المقدسة، وبعث الأمل والطمأنينة فيها، وبث اليقين في قلبه الطاهر المقدس.

الدرس الثالث: إن أصحاب المشاريع المضادة لا يلتزمون بمنطق ولا قيم دينية أو أخلاقية أو إنسانية، فأهدافهم دائماً أهداف غير مشروعة، ولا يتنزهون عن استخدام أي أسلوب لتحقيق أهدافهم مهما كان الأسلوب حقيراً ودنيئاً وغير إنساني، ولا يتورعون عن تعمد كتمان الحقائق وتغييرها وتصوير الأمور على غير حقيقتها، بل يتعمدون عن قصد وسبق إصرار تصوير الواقع على نقيضه تماماً بكل وقاحة وصلافة، فهم لا يعرفون العيب والحياء وما يتفاخر به الأسوياء من الأخلاق، فالمهم لديهم هو تحقيق أهدافهم وأغراضهم غير المشروعة بكل وسيلة، ولهذا يجب الحذر جيداً في التعاطي مع أصحاب المشاريع المضادة وأساليبهم السياسية والأمنية وغيرها، والحذر من إعلامهم المضاد الذي

يصور الحق باطلا.. والباطل حقاً، وفضحهم وفضح أساليبهم ووسائلهم، وعدم السماح لهم بقلب الحقائق وتغييرها وخداع الرأي العام وتمرير المشاريع المضادة الخبيثة عليه.

قال الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٧].

الصلة بين القسم وجواب القسم: توجد العديد من الصلات بين القسم وجواب القسم نشير إلى بعضها، وهي كالتالي:

الصلة الأولى: يريد الله ـ جل جلاله ـ من الرسول الأعظم ﷺ، الذي يحاول المشركون وأصحاب المشاريع المضادة، إثارة القلق في روحه والألم في وجدانه لإعاقة حركته الإصلاحية وتقدمها في المجتمع، يريد الله تعالى لرسوله الأعظم الأكرم ﷺ، أن يتأمل روعة الضحى في إشراقة النهار بنور الشمس، وهدوء الليل في غفوة

الظلام، ليعيش الهدوء النفسي والصفاء الروحي والسكون الوجداني، فلا يضطرب قلبه، ولا تروع نفسه، أو تتعقد مشاعره، يريد الله الرؤوف الرحيم لعبده وحبيبه ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، أن يتأمل ذلك. . ليوحي إليه، بأن الذي أعطى الكون هذا النور المادي، قادر على أن ينور له الدرب الشاق بالنور المعنوي، نور المعرفة والإيمان واليقين، ويأخذ بيده ويؤنسه فيه ويسهله عليه، فلا يتيه في إلتواءاته وتعرجاته، ولا يضيع في ظلامه وإشكالاته، ولا يستوحش لقلة سالكيه ووعورته، ولا ترهقه صعوباته وتحدياته، وأن الذي ملأ النهار بالأمل والتفاؤل والأنس والجمال، والليل بالسكون والوقار، قادر على أن يمنحه السلام الروحي فلا ترهقه الحياة بمشاقها ومتاعبها.

الصلة الثانية: الإيحاء لكافة الناس بقيمة الوحي والهداية الإلهية في حياة البشرية، فالوحي والنبوة مثل ضياء الشمس الذي يضيء للناس حياتهم وعقولهم وقلوبهم ليهتدوا به، ويمنحهم الدفء المعنوي كما تمنحهم الشمس الدفء المادي، ويهبهم البيئة الروحية والمعنوية الصحية، ويساعدهم على النمو الروحي والإنساني الصحيح في بيئة الرسالة الإلهية العظيمة كما تفعل الشمس في عالم الطبيعة، ويحذرهم من التيه والضياع في ظلام الجاهلية الجهلاء، إن هم لم

يسترشدوا بنور الوحي والنبوة في حياتهم، كما يسترشد السالك بنور الشمس والقمر، وتطمينهم بأن الله الرؤوف الرحيم جل جلاله، لا يمكن أن يترك الناس بغير هادٍ ومرشد من عنده سبحانه وتعالى في كل مراحل التاريخ الطويل، من أوله إلى انقضاء الدهر، وأن انقطاع الوحي المؤقت مثل الليل الذي ينتهي بإشراق الشمس التي يجلوها النهار، وأن غياب الهادي المرشد مثل الشمس التي تحجبها الغيوم إلى أن تكشفها الرياح فتعود السماء إلى صفائها، والشمس إلى إشراقها في سماء الطبيعة والإنسانية.

في الكافي الشريف ـ ج١ ـ باب: إن الأرض لا تخلو من حجة ـ الحديث ٢ ـ ص ١٧٨ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم).

وفيه ـ الحديث ٦ ـ ص١٧٨ ـ عنه عليه السلام.. أنه قال: (إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل).

وفي إكمال الدين للشيخ الصدوق رحمه الله ج١ ـ ص١٥٣، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أنه سأل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «هل ينتفع الشيعة بالقائم عليه السلام في غيبته؟» ـ فقال صلى الله عليه وآله: «إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم لينتفعون به،

ويستضيئون بنور ولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن جللها السحاب»).

وفيه ـ ص٢٠٧ ـ عن سليمان الأعمش، عن الإمام الصادق عليه السلام.. أنه قال: (لم تخل الأرض «منذ خلق الله آدم عليه السلام» من حجة لله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو «إلى قيام الساعة» من حجة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله).

قال سليمان: فقلت: فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟

قال: (كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب).

أيها الأحبة الأعزاء: من الواضح جداً أن السحاب لا يعطل الأدوار الجوهرية للشمس وإن ستر بعض نورها، وحسب مفهوم هذه الأحاديث الشريفة، فإن القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يؤدي دوره من وراء ستار الغيبة، وتتفجر منه البركات والخيرات المعنوية إلى الناس، ويؤدي دوره كحجة الله تعالى على العالمين، وليست حياته حياة العاجز الضعيف الذي لا حول له ولا قوة، وإنما حياته ودوره كالشمس التي تبعث الضوء والنور والحياة والصحة والأمل والتفاؤل والأنس والجمال، وتحفظ النظام والتوازن

والتماسك في المجموعة الشمسية، ولولا الشمس لاختل النظام في المجموعة الشمسية، وانتثرت الكواكب في كل مكان وتلاشت في الفضاء اللامتناهي، فالشمس أمان للمجموعة الشمسية من الفناء والزوال، وكذلك حجة الله تعالى في الأرض أمان لأهلها في غيبته واستتاره، وإن كان الانتفاع به حال ظهوره أتم وأكمل.

الصلة الثالثة: إن تعاقب الليل.. والنهار وخصائصهما كظاهرتين كونيتين طبيعيتين، تدلان على الهدفية والنظام في الوجود، وبالتالي تدلان على مسألتين مهمتين.. وهما:

المسألة الأولى: تدلان على خالق الوجود وصفاته وأسمائه وعلى اليوم الآخر.

المسألة الثانية: تدلان بالتأمل على ضرورة الهداية الإلهية للبشرية، من أجل إيصالها إلى كمالها وغاية وجودها كما أوصل الطبيعة إلى كمالها وغاية وجودها، وبالتالي فهي تدل على عدة وجوه تتعلق بجواب القسم. قول الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] ـ وسوف أذكر ثلاثة وجوه تتعلق بالهداية، وكلها تدل على أن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، لا يجوز ولا يصح ولا يمكن أن يتركه ربه أو يكرهه، والوجوه الثلاثة هي.. كالتالي:

الوجه الأول: إن ضرورة الهداية تعني ضرورة وجود الهادي وأنه حبيب الله نور السماوات والأرض، وضرورة استمرار الوحي وعدم انقطاع الهداية في الأرض من آدم عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة.

الوجه الثاني: إن الهدفية في الوجود لا تدل على ضرورة وجود الهادي فحسب، وإنما تدل على ضرورة وجود الإنسان الكامل، وهو محمد بن عبد الله ﷺ، صاحب الرسالة الخاتمة التامة الكاملة، وهو أفضل خلق الله تعالى وأقربهم منه وأحبهم إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

في هذه الآيات الشريفة المباركة الثلاث، نجد بوضوح بأن الغاية من الخلق ليس مجرد العمل وإنما العمل الأحسن،

وهو عمل الإنسان الكامل المتمثل في الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأهل بيته ﷺ.

الوجه الثالث: إن الهدفية في الوجود كما تدل على وجود الإنسان الكامل، فإنها تدل أيضاً على ضرورة وجود المجتمع الكامل.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

وفي ينابيع المودة ـ ص ٤٣٣ عن مسند أحمد، أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وعدواناً ثم يخرج من عترتي من يملأها قسطاً وعدلاً).

وهذا يقتضي ضرورة استمرار الهداية بعد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولن تنقطع بأي حال من الأحوال، في أي وقت من الأوقات، وتحت أي ظرف من الظروف، ويدل على ذلك حديث الثقلين المتواتر في مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت ﷺ.

يقول ابن حجر في الصواعق ص٩٠: «سمى رسول الله ﷺ القرآن والعترة ـ وهي بالمثناة الفوقية: الأهل والنسل والرهط الأدنون ـ ثقلين: لأن الثقل: كل نفيس خطير مصون، وهذان كذلك، إذ كل منهما معدن للعلوم اللدنية،

والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية، ولذا حث ﷺ على الإقتداء والتمسك بهم، والتعلم منهم.. وقال: الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت. (وقيل ـ ولا زال القول لابن حجر): سميا ثقلين: لثقل وجوب رعاية حقوقهما، ثم الذين وقع الحث عليهم منهم، إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب والسنة، ويؤيده الخبر السابق (ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم) وتميزوا بذلك عن بقية العلماء، لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وشرفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة، وقد مر بعضها، وسيأتي الخبر الذي في قريش (وتعلموا منهم فإنهم أعلم منكم) فإذا ثبت هذا لعموم قريش، فأهل البيت أولى منهم بذلك، لأنهم امتازوا عنهم بخصوصيات لا يشاركهم فيها بقية قريش، وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة، كما أن الكتاب العزيز كذلك».

وأما عن غيبة ولي الله الأعظم عليه السلام، فهي لا تعني انقطاع الهداية، وإنما هو كالشمس التي تؤدي وظيفتها من وراء الغيوم، وأن الغيبة ليس من شأنها أن تعطل وظيفته عليه السلام في الهداية كما أوضحت قبل قليل.

الصلة الرابعة بين القسم وجواب القسم: تقوية العزم

والإرادة لدى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ لحمل الرسالة، وتقوية قلبه الطاهر على مواجهة أراجيف أصحاب المشاريع المضادة وأكاذيبهم وإعلامهم الكاذب وأباطيلهم وخدعهم ومخططاتهم ودسائسهم الشيطانية الخبيثة، وقد تعرف على الكثير منها من خلال توقف الوحي، وسوف يكونون عليه لبدا في المستقبل حين يتواصل الوحي وتتابع الرسالة، والإيحاء له بأن الانقطاع المؤقت للوحي لفترة قصيرة من الزمن، هو كالليل من أجل الاستجمام والتقوية والتهيئة لكفاح يوم جديد، ثم يعقبه عودة الوحي كعودة الضحى وشروق الشمس ليبدد ظلام الليل، ولتعود للحياة حركتها وحيويتها ونشاطها من جديد، فعليه أن يتأهب ويأخذ استعداده للعودة الميمونة للوحي، وما يقتضيه من عمل وجهاد متواصل في سبيل الله سبحانه وتعالى، الذي هو سبيل الحق والخير والعدل والراحة والرفاهة والتطور والازدهار والتقدم للإنسان في الحياة الدنيا، وفي سبيل راحته وسعادته في الآخرة.

الصلة الخامسة: إن البعد الجمالي الذي يتذوقه الإنسان من حيوية النهار وسحر الليل وسكونه، يوحي للقلب بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع جمال الوجود وغاياته، ليعيش القلب الأنس والطمأنينة، وتعيش النفس النشوة الروحية واللطافة والسمو والرفعة في عالم الملكوت، مما يوحي لقلب الرسول

الأعظم الأكرم ﷺ، بأن الذي أفاض على هذا الوجود المادي الأنس والجمال، قادر على أن يفيض في قلبه الرحمة والطمأنينة والراحة والسلام، وينصب له مدارج العروج إلى الكمال الإنساني والملكوت الأعلى بغير منازع ولا منافس، وإلى أهل بيته وأصحابه من بعده وكل من يقتدي به إلى يوم القيامة، كل على قدر باعه وعلمه وعمله وجهاده في ذات الحق سبحانه وتعالى.

الصلة السادسة: في الليل توجد الأحلام السعيدة التي تنساب مع تطلعات النفس إلى المستقبل المشرق الحالم الجميل، التي تشبه تطلعات المؤمنين حين تسبح أرواحهم الطاهرة في عالم الملكوت بالتسبيح والتهجد، وما توحي به من الخير.. والمحبة.. والسلام، وفي الليل توجد الأحلام المزعجة غير الواقعية ولا المنطقية، التي تشبه تطلعات المغرورين والضالين والبطالين في الحياة، البعيدين عن روح الحياة ومنهجها وغاياتها، وعن منطق الحق والعدل والواقع والحياة.

الصلة السابعة: أوجه الشبه بين الداعي إلى الله سبحانه وتعالى وبين الشمس.

الوجه الأول: الشمس متحركة وليست مستقرة في مكان

محدد أو إقليم خاص، وكذلك الداعي إلى الله سبحانه وتعالى ينبغي أن يكون كالشمس متحرك بين الناس ليبلغ دين الله جل جلاله.

الوجه الثاني: الشمس تستمد نورها من الله سبحانه وتعالى وتنير به العالم كله، وكذلك الداعي إلى الله تعالى يستمد علمه من الله جل جلاله وينشره بين الناس أجمعين.

الوجه الثالث: الشمس ليس عندها عنصرية ولا حزبية بل تخرج على العالم كله، وكذلك الداعي إلى الله ـ جل جلاله ـ ينبغي أن لا يفرق بين الناس أسودهم وأبيضهم عربيهم وأعجميهم بل هم سواسية عنده.

الوجه الرابع: الشمس لا تأخذ أجراً على نورها الذي تنير به العالم، وكذلك الداعي إلى الله تعالى لا يأخذ أجراً على دعوته.

الوجه الخامس: الشمس ليس لها إجازة رسمية ولا عطلة صيفية ولا راحة، وكذلك الداعي إلى الله تعالى ينبغي أن يواصل دعوته في كل الأحوال وتحت كل الظروف وأن لا يكل ولا يمل وكلما فرغ من عبادة نصب إلى أخرى.

وأخيراً: إذا خسفت الشمس يكون هناك خوف ووجل

بين الناس، وكذلك إذا ترك الداعي إلى الله الدعوة فهو خطر على البشرية (المصدر شبكة الفجر)

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

خَيْرٌ: الخير ضد الشر، لأن الخير هو وجدان كل شيء كمالاته اللائقة وما يتم به وجوده، والشر هو فقدان ذلك.

والخير: وهو الحسن لذاته، لما يحققه من لذة أو نفع أو سعادة.

وأيضاً الخير هو: الكرم والجود والشرف والعافية والإيمان والعفة والمال الكثير الطيب وصلاح الحال وما كان نافعاً لكمالات الأشياء.

وخيار الناس وأخيارهم: ضد أشرارهم.

والخيرات: جمع خيرة.. وهي الفاضلة من كل شيء.

ويأتي خير للتفضيل: فيقال هذا خير من هذا، والحياة خير من الموت.. أي يفضله، وخير بين الأشياء، أي فضل بعضها على بعض، وهو المراد في الآية الشريفة المباركة.

الآخرة والأولى: لهما معنيان، وهما:

المعنى الأول: الآخرة بمعنى المستقبل من حياة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، والأولى ما مضى من حياته حتى نزول السورة الشريفة المباركة.

المعنى الثاني: الآخرة بمعنى عالم الآخرة، والدنيا بمعنى عالم الدنيا.

وللآية الشريفة المباركة على المعنى الأول عدة دلالات، ولها على المعنى الثاني عدة دلالات أخرى، وهي كالتالي:

دلالات الآية الشريفة المباركة على المعنى الأول

الدلالة الأولى: الآية تبشر الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بمستقبل زاهر في حياته العامة ولدعوته خير مما كان في الماضي، فالدعوة ستزداد قوة وانتصاراً وإشراقا، ويتصاعد هو رفعة ومنزلة عند الله سبحانه تعالى وبين الناس، وأن دعوته وحياته سوف تنتقلان من طور حسن.. إلى طور أحسن، ومن نصر.. إلى نصر أكبر، وأنه سيزداد فضلاً يوماً بعد يوم حتى يوم القيامة، في إشارة إلى اتساع رقعة الإسلام وانتشاره وزيادة عدد المسلمين، وانتصارات المسلمين المتلاحقة على الأعداء وأصحاب المشاريع المضادة، الذين

آذوا الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، والذين يقفون في وجه دعوته المنتصرة بإرادة الحق القوي المتعال، وبحوله وقوته التي لا تغلب سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً، واندحار الأعداء واندثار الشرك وزوال آثاره إلى يوم الدين. كما تدل على مواصلة الوحي واتصاله وعدم انقطاعه بعد نزول السورة الشريفة المباركة، وحتى آخر حياته المباركة ﷺ.

الدلالة الثانية: الآية الشريفة المباركة ربما تشير إلى المشقة والتعب والأذى والعوارض الفادحة التي لاقاها الرسول الأعظم الأكرم ﷺ فيما مضى من حياته وما سيلاقيه في مستقبل أيامه، وما سيلاقيه أهل بيته عليهم السلام والمؤمنون من بعده، وأن الله الرؤوف الرحيم يعدهم بأنه سوف يقر أعينهم ويعوضهم على صبرهم بإظهار دينهم وهو دين الله الذي بذلوا مهجهم في سبيله، يظهر الله القوي المتعال دينهم الحق المبين على الدين كله ولو كره المشركون، وذلك على يد الحجة القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في آخر الزمان حسب إجماع المسلمين، ولن تذهب جهودهم وتضحياتهم سدى.

الدرس الذي نستفيده من هذا المعنى

أن نقوي إرادتنا وعزيمتنا في مواجهة التحديات والصعوبات التي تواجهنا في الدعوة إلى الله ﷻ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع عن الحق والعدل والإيمان، والمطالبة بالحقوق العامة العادلة للمسلمين والمواطنين، والمحافظة عليها وصيانتها من الانتهاك والاعتداء عليها، وأن نواصل جهودنا في الإعداد المقدس المبارك لظهور الإمام المهدي القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والتمهيد لدولته العظيمة.. دولة العدل الإلهي العالمية، التي يقيمها الله جل جلاله على يديه المباركتين كما وعد بذلك حسب إجماع المسلمين، ولن يخلف الله تعالى وعده، وأن لا نلين ولا نستكين، حتى ينجز الله جل جلاله ذلك الوعد المقدس العظيم، ويظهر دينه على الدين ولو كره المشركون.

دلالات الآية الشريفة على المعنى الثاني

الدلالة الأولى: إن الله جل جلاله حين أوقف الوحي لفترة من الزمن، لم يترك الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وحيداً دون رعاية وحماية، ولم يرفع عنه رحمته وألطافه، وأن نعم الله الرؤوف الرحيم عليه في الدنيا كثيرة لا حصر لها، إلا أن ما وعده من الخير والكرامة في الآخرة أعلى وأكبر وأفضل

وأعظم وأجل، فهو مشمول في الحياة الدنيا بألطاف الله الكبير المتعال، ورحمته وحمايته ورعايته وكرامته، وأنه عزيز عند الله جل جلاله وله الكرامة والرعاية الإلهية ما دام على قيد الحياة الدنيا، إلا أن ما له في الآخرة أعظم وأكبر وأفضل وأجل من ذلك بكثير لا يقاس، وأنه آمن في الآخرة من كل عذاب وألم، وله في الآخرة من النعيم العالي المقيم الخالد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا يخطر على قلب بشر، وأنه حقيق بذلك كله من عند ربه الواسع الكريم ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً.

الدلالة الثانية: إن الله جل جلاله سوف يعوضه في الآخرة أفضل وأعظم وأجمل وأشرف عوض عن كل ما سيلاقيه في عالم الدنيا من الأذى في نفسه ﷺ، وفي أهل بيته عليهم السلام، وفي أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وفي أتباعه إلى يوم القيامة، وأنه سيرضيه فيما يعطيه ويعطيهم من الأجر والمثوبة في يوم القيامة.

الدلالة الثالثة: إن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ قد أوتي في الدنيا شرف النبوة والرسالة، وهو الشرف الذي لا يدانيه أي شرف، وأوتي الكمال المعنوي في شخصيته الإنسانية

العظيمة، وجعل القدوة الحسنة للناس جميعاً والحجة عليهم في الدنيا من أولها إلى آخرها، والشاهد عليهم في الآخرة، وأوتي علم الأولين والآخرين، وأوتي التعظيم والتوقير والذكر الجميل الخالد ما بقي الدهر، وضمن له بقاء الدين وظهوره وانتصاره على كل دين، أي أن جهوده وتضحياته ﷺ، وجهود أهل بيته عليهم السلام وتضحياتهم، وجهود المؤمنين وتضحياتهم، لن تذهب سدى، وسوف تؤتي أكلها في الحياة الدنيا قبل الآخرة، إلا أن ما سيؤتيه الله سبحانه وتعالى في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل، وكرامة الشفاعة، والمقام المحمود، والدرجات العالية. . والنعيم الذي لا يزول في الجنة وما فوقها، وغير ذلك من الكرامات العظيمة العالية، وأن أكثر أهل الجنة وأعلاهم منزلة في الجنة يوم القيامة هم من أمته المرحومة، هذه النعم وغيرها من النعم العظيمة العالية في الآخرة، هي أجل وأعظم من كل شرف وكل كرامة يحصل عليها في الدنيا، لأن الدنيا زائلة فانية ولا تخلو من شائبة الألم والعوارض الفادحة التي تصيبه في نفسه ﷺ، وفي أهل بيته عليهم السلام وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم وفي أتباعه إلى يوم القيامة، أما الآخرة فهي باقية خالدة صافية من الشوائب والألم والحمد لله رب العالمين.

الدروس التي نستفيدها من هذا المعنى

الدرس الأول: أن لا نؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، وأنه لا ثمن لأنفسنا إلا الجنة، فلا نبيعها بأي ثمن بخس من أجل الدنيا وأهلها.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٩].

وفي نهج البلاغة.. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

(أما بعد: فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أشرقت بإطلاع، ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق. والسبقة الجنة.. والغاية النار. أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟ ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟ ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل. فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله ولم يضره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله. ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها.. ولا كالنار نام هاربها. ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى

الردى، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى.. وطول الأمل، وتزودوا من الدنيا ما تحرزون أنفسكم به غداً).

الدرس الثاني: إن أهم ما ينبغي للإنسان العاقل أن يركز عليه في حياته هو الاستقامة على الدين وطاعة الرب سبحانه وتعالى، أما الراحة والتعب فهما شيء ثانوي بعد الدين والاستقامة، وأن الإنسان المؤمن صاحب البصيرة، يستطيب المشقة في سبيل الله الحميد المجيد، ويختارها بإرادته في سبيل دينه وأمته، ابتغاء الأجر والمثوبة العظيمة من عند الله الغني الحميد يوم القيامة.

قول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

سَوْفَ: حرف مبني على الفتح، يدخل على الفعل المضارع فيرده من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال، فيدل على حدوثه في المستقبل، وأكثر ما يستعمل في الوعيد مثل ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقد يستعمل في الوعد كما هو الحال في الآية موضوع البحث. ويقتضي معنى المماطلة والتأخير.

العطاء: ما يعطى. جمعه أعطية.، وجمع الجمع أعطيات.

فَتَرْضَى: رضيت الشيء وارتضيته فهو مرضي.

رضيه ورضي به: اختاره وطابت نفسه به.

ورضى ورضي عنه وعليه: أحبه وأقبل عليه.

ورضى ورضي الله عن عبده: قبله وأراد ثوابه.

ورضا العبد عن الله: أن تطيب نفسه بما جازاه به.

وأرضاه: جعله يرضى.. وأعطاه ما يرضيه.

الآية الشريفة المباركة: تتضمن البشرى من الله البر الرحيم، بأعظم وأكرم وأسمى وأشمل عطاء رباني لعبده ورسوله وحبيبه محمد بن عبد الله ﷺ، حيث اشتمل الوعد على عطاء مطلق من الله ذي الجلال والإكرام، يتبعه رضا مطلق من عبده ورسوله وحبيبه محمد بن عبد الله ﷺ، والآية الشريفة المباركة ناظرة إلى الحياتين جميعاً معاً.. الدنيا والآخرة.

وللآية الشريفة المباركة عدة دلالات عديدة أذكر منها الدلالات التالية:

الدلالة الأولى: اللام في الآية الشريفة المباركة تفيد

تأكيد المضمون فيها وحتمية تحقق الإعطاء.

الدلالة الثانية: التأكيد على ما جاء في الآية السابقة.

الدلالة الثالثة: توارد الوحي واستمراره وعدم توقفه أو انقطاعه بعد نزول السورة الشريفة المباركة.

الدلالة الرابعة: عظمة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وكرامته وفضله عند الله تعالى.

الدلالة الخامسة: إن العطاء الرباني للرسول الأعظم الأكرم ﷺ فوق الوصف.

الدلالة السادسة: إن العطاء الرباني للرسول الأعظم الأكرم ﷺ، هو جزاء عمله وكدحه وجهاده المستمر الدؤوب في ذات الله الملك الحق القدوس الغني الحميد، ويلق بعظمته وكرامته وكماله الإنساني البالغ.

الدلالة السابعة: حتمية ظهور الدين وانتصاره على كل دين.

الدلالة الثامنة: الشفاعة الكبرى للرسول الأعظم الأكرم ﷺ، ونجاة الأمة الإسلامية في يوم القيامة، لأن رضا الرسول الأعظم الأكرم ﷺ لا يمكن أن يتحقق بنجاة نفسه فحسب، وإنما بقبول شفاعته في أمته ونجاتها كما دلت على ذلك الكثير من الأخبار.

روي عن محمد ابن الحنفية رضي الله تعالى عنه: عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: (يا أهل العراق، تزعمون أنّ أرجى آية في كتاب اللّه عز وجل ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وإنا أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وهي والله الشفاعة، ليعطيها في أهل لا إله إلا الله لأن يقول رب رضيت).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (رضا جدي صلى الله عليه وآله أن لا يبقى في النار موحد).

فلسفة العطاء الإلهي المطلق للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

قلت فيما سبق بأن الآية الشريفة المباركة، تدل على عظمة الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، وبالتحقيق فإن الرسول الأعظم الأكرم هو أعظم مخلوق، وقد بلغ ذروة وغاية الكمال البشري، حتى بلغ في معراجه الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق، وهو الحد الذي تفرد به فلم يبلغه أحد من الملائكة والأنبياء والرسل من قبله ولن يبلغه أحد من بعده، وهذا الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله على الرغم من كماله الإنساني الشامخ، عاش الحرمان المادي والمشاق والمتاعب والأذى في الحياة الدنيا على يد أعتى الأعداء والجهال، وحسب مقتضى الحكمة والعدل الإلهي، فقد عوضه الله تعالى

بما لا يحصى من الكرامات المعنوية في الحياة الدنيا، وسوف يغدق الله جل جلاله عليه بأعظم الهبات الإلهية الخارجة عن حد الوصف في الآخرة حتى يرضى وبعد الرضا.

في مجمع البيان ـ ج ١٠ ـ ٧٦٥ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام: (دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من أجلة الإبل، وهي تطحن بيدها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله لما أبصرها فقال: يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقد أنزل الله علي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾).

وهذه القاعدة ليست خاصة بالرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، بل تشمل كل المؤمنين المجاهدين المضحين بأرواحهم وأغلى ما يملكون.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ذلك: لأن الله جل جلاله يريد للعلاقة بينه وبين عباده

المحبين له المضحين والمجاهدين في سبيله، يريد لهذه العلاقة أن تكون قائمة على الرضا والمحبة المشتركة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧ ـ ٨].

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

المحور الثالث

إقامة الدليل على الرعاية الإلهية للرسول الأعظم الأكرم ﷺ. . وبيان عظيم فضل الله تعالى عليه.

قول الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨].

أيها الأحبة الأعزاء: في هذه الآيات الثلاث الشريفة المباركة، بيان لألطاف الله سبحانه وتعالى التي شملت الرسول الأعظم الأكرم ﷺ قبل نزول السورة الشريفة المباركة، وتعداد أياديه البيضاء الكريمة وما أفاضه عليه من الهبات والمكرمات الإلهية العظيمة العليا، والآيات الثلاث الشريفة المباركة تشير إلى ثلاث نعم عظيمة أنعم الله سبحانه وتعالى بها على الرسول الأعظم الأكرم ﷺ قبل نزول السورة الشريفة المباركة، والهدف من ذكر هذه النعم هو إقامة الدليل على صدق الوعد الإلهي للرسول الأعظم الأكرم ﷺ بإعطائه ما يرضاه كله، أي ذكر بعض نعم الله الحنان المنان وألطافه

القديمة علي الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، ليستشهد بالحاضر والماضي على المترقب الموعود في المستقبل، فيطمئن قلب الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، وينشرح صدره (الأسلوب العلمي في الإثبات): كأنه قيل: ما الدليل على صدق هذا الوعد؟ فقيل: الدليل عليه: أنه وجدك يتيما فآوى... الخ، وبالتالي فإن الآيات الشريفة المباركة، بعد أن أقامت الدليل على صدق الوعد الإلهي بإعطاء الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ما يرضاه كله في الدنيا والآخرة، فإنها تحث الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وتشجعه على المضي قدماً في طريقه الذي اختاره الله العزيز الحكيم جل جلاله له، لأنه طريق محمود العواقب في الدنيا والآخرة، وليس عليه ﷺ أن يلتفت إلى الأباطيل والأراجيف المضادة والاعلام المضلل الباطل المزيف، فإنها ليست بشيء ولا قيمة علمية لها.. ولا عملية، غير الإساءة إلى الحق والعدل والخير، وإعاقة انطلاقة المسيرة الربانية الإصلاحية الكريمة في الأرض، ولا يرجى منها أي خير للناس: لا في الدنيا.. ولا في الآخرة.

الدرس الذي نستفيده من الآيات الشريفة المباركة في هذا المحور

ونستفيد من هذه الآيات الشريفة المباركة، أن يلتزم

الخطاب الإسلامي والوطني، والقيادة الإسلامية والوطنية، بالأسلوب العلمي في الإقناع والتوجيه والقيادة، وأن لا يعتمدا على السلطة الفوقية: الدينية والسياسية والاجتماعية في ذلك، فإن الأسلوب الفوقي وإن ترتب عليه الانصياع للتوجيه وللأمر الصادر عن القيادة، فإنه إلى حين، ثم يفقد هيبته وقيمته بعد أن يمتحن على أرض الواقع، وتتناوله العقول بالنقد والتقييم ويثبت خطأه أو ضعفه وأن هناك خيارات أفضل وأقوى منه، ومن المعلوم فإن القرارات والمواقف، لا بد أن تمتحن وتقيم وتثمن من المهتمين وأصحاب الاختصاص، وإن غفل عنها الأتباع والأصدقاء، فإن الأعداء والمنافسين لن يغفلوا عنها، ومن المعلوم الواضح لكل صاحب لب وتجربة، بأن القرارات الفوقية لا تترتب عليها الفائدة المرجوة في التربية الواعية الإيمانية والوطنية، التي ترفع من كفاءة الإنسان المؤمن والمواطن في نفسه، وتسرع خطى تقدمه في سيرته التكاملية في القرب من الله عز وجل وفي وعيه ومواقفه، وتمكنه من تحمل المسؤولية الشرعية والاجتماعية في النهوض الواعي بالأمة والمجتمع، على بصيرة بالمنهج والحكم الشرعي، وعلى بصيرة بواقع ساحة العمل والحركة، وتزيد في بصيرته بالقيادة وكفاءتها وأسلوب عملها، مما يجعله قادراً على المبادرة والمساهمة الفاعلة في

إدارة الواقع وقيادته وتقدمه بكفاءة عالية للأمام، نحو تحقيق أهداف الرسالة والأهداف السياسية والاجتماعية: الوطنية والقومية والإسلامية، والتصدي القوي الواعي لمخططات الأعداء، ومقاومتها بكفاءة وقناعة وكل ثبات.

ومن الواضح لكل صاحب لب وتجربة، بأن القرارات الفوقية تضعف من تماسك الجماعة وقوتها وخبرتها ووعيها في الحياة وتقدمها وقدرتها على تحمل المسؤولية واستعدادها للتضحية من أجل أهدافها في الدين والحياة، وتجعلها عرضة للفشل والتخلف والاختراق من الأعداء والهيمنة عليها من قبلهم بيسر وسهولة، فحري بكل قيادة دينية وقومية ووطنية أن تتجنب الفوقية في التوجيه والقيادة لأخطارها الفادحة على الدين والأمة والوطن، وأن تلتزم بالأسلوب العلمي في الإقناع والإرشاد والتوجيه والقيادة.

وإنني أعتقد: بأن اعتماد الخطاب والقيادة الإسلامية والقومية والوطنية على الفوقية في القيادة والتوجيه، يشكل خطراً على الفكر الإسلامي والقومي والوطني، وعلى الحالة الإسلامية الإيمانية التقوائية.. والحالة القومية والوطنية، وله سلبيات خطيرة على الواقع الإسلامي والقومي والوطني، ويؤدي إلى الضعف والتخلف والفشل في تحقيق الأهداف

الإسلامية والقومية والوطنية العليا، والفوقية في الخطاب دليل على العجز وعدم الكفاءة، ودليل على قلة الوعي والفهم بسيكولوجية الخطاب والقيادة والتوجيه، ودليل على قلة الإخلاص وقلة القناعة بالقضية حسب المؤشرات العامة لفهم الموضوع، ولا عبرة بالحالات الخاصة والاستثنائية التي تخرج عن القاعدة العامة لاعتبارات مفهومة أو غير مفهومة، مقبولة أو غير مقبولة، فالعبرة إنما هي بالقاعدة العامة في الموضوع، وللاستثناء حساباته الخاصة التي يخرج توضيحها عن نطاق البحث في هذه العجالة.

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾.

معاني مفردات الآية الشريفة المباركة

الهمزة: للاستفهام التقريري.

يَجِدْكَ: يعني وجدك وعلم بك.

اليتيم: له معنيان، وجمعه أيتام ويتامى.

المعنى الأول: الصغير الفاقد للأب قبل البلوغ من الإنسان، والفاقد للأم قبل البلوغ من الحيوان.

المعنى الثاني: الفريد الذي لا نظير له. يقال للجوهرة الفريدة: «الدر اليتيم».

آوَى: الجرح أبرأه، وآوى فلاناً: رق له ورحمه ورعاه، وتأتي بمعنى: أنزل وأسكن.

وقد ذكر العلماء تفسيرين للآية الشريفة المباركة، بناءً على معنى اليتيم، وهما كالتالي:

التفسير الأول: لقد توفي والد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وهو لا يزال جنيناً قد مضت عليه ستة أشهر في بطن أمه، فاستقبل الحياة يتيم الأب، وكان كأي يتيم في الدنيا معرضاً للضياع والتشرد والجوع والحرمان وفقد الحنان والرعاية، ولكن الله الحنان المنان أحاطه بعنايته ولطفه وهيأ له المأوى الذي يضمه ويشمله بعطفه وحنانه، فكفله جده عبد المطلب سيد مكة خير كفالة، ورعاه أجمل رعاية، وحنا عليه حنواً كثيراً، فكان لا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، وكان يجلسه إلى جانبه وربما أقعده على فخذه، ويؤثره بأطيب الطعام. وهو الذي سمى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بإسم (محمد) بتسديد رباني، فلم يكن الاسم كأي اسم، وإنما كان اسماً مخصوصاً له دلالاته المخصوصة، ولم يكن الاسم متداولا ولكنه كان معروفاً، فسألت قريش عبد المطلب: أرغبت عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه، وكان عارفاً بنبوته كما تظافرت النصوص

بذلك عند المسلمين. ولما كان في السادسة من عمره الشريف المبارك توفت والدته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة سيد بني زهرة وأرضاها وكانت تحنو عليه كثيراً وتغدق عليه بعطفها الشامل، فعان اليتم المزدوج من الأب والأم، ولكن حبه زاد في قلب جده عبد المطلب، ثم مات جده وكفيله عبد المطلب وهو ابن ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب شيخ الأبطح والد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر من جده عبد المطلب، ولم يكن أبو طالب أكبر أخوته سناً، فقد كان الحارث أسنهم، ولم يكن أكثرهم مالاً ويساراً، فقد كان العباس أكثرهم مالاً ويساراً، ولكن أبو طالب كان أعقلهم وأنبلهم وأكرمهم وأجلهم قدراً وأكثرهم مكانة واحتراما في قريش، وأبصرهم بشأن الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، والمستقبل العظيم المشرق الزاهر الذي ينتظره، وأقدرهم على حمايته والدفاع عنه، وكان شقيق والد النبي صلى الله عليه وآله لأبيه وأمه، حيث كانت أمهما (فاطمة المخزومية) فأحبه كحب عبد المطلب له حباً عظيماً جماً، وقد وجد فيه النجابة والصدق والذكاء والوقار والبر وطيب النفس، مما كان يزيده به تعلقاً وله حباً، حتى كان يقدمه على أبنائه ويؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله، وكان شديد الحرص عليه والعناية به والعطف عليه والحماية له

صغيراً، حتى كان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج به متى خرج، وكان لا يفارقه في ليل ولا نهار، ولا يأتمن عليه أحداً، وكانت زوجته فاطمة بنت أسد (رضي الله تعالى عليها وأرضاها) تحنو عليه كأمه، وقد روي عنه ﷺ لما توفيت أنه قال: (اليوم توفيت أمي، وكفنها بقميصه، واضطجع في لحدها) فقيل له: يا رسول الله لقد اشتد جزعك على فاطمة، فقال: (إنها كانت أمي، إنها كانت لتجيع صبيانها وتشبعني، وتشعثهم وتدهنني)، فقد بلغ من حرصها عليه، أنها كانت في سنين الجدب والقحط التي مات فيها الناس جوعاً وعطشاً، تحرم أولادها من القوت الضروري وتطعمه إياه، فنشأ في أحضان عمه أبي طالب وزوجته فاطمة بنت أسد نشأة طبيعية لا يشعر فيها بالغربة بين أولادهما، ولا يشعر بمرارة اليتم والفقر، ولا يشعر بأي مشكلة تذكر مما يعانيه الأيتام عادة من المشاكل الكبيرة في حياتهم بين الناس.

ولم يزل الصديق أبو طالب ينصر الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بيده ولسانه ويحميه من كل أعدائه ومناوئيه طوال حياته، ويحافظ عليه أكثر مما يحافظ على نفسه وأولاده، واستمات في الدفاع عنه بعد أن أكرمه الله الحسيب الرقيب سبحانه وتعالى بالنبوة، فلم يستطع أحد أن يصل إليه بالأذى حتى قبض أبو طالب، فتجرأت قريش على الرسول الأعظم

الأكرم بعد وفاة أبي طالب، حتى اضطرته ـ روحي فداه ـ إلى الهجرة.

دلالتان رئيسيتان للآية الشريفة المباركة فيما يخص موضوع بحثنا.. وهما:

الدلالة الأولى: مدح عملية الإيواء ونجاحها الباهر في تحقيق الغاية الربانية منها، وأنها كانت عملية إيواء تليق بمقام طفولة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، وكانت من الألطاف والمواهب العظيمة التي من الله الحفي الحميد المجيد بها على رسوله وحبيبه محمد بن عبد الله ﷺ.

الدلالة الثانية: عظمة شأن من قام بعملية الإيواء من الرجال والنساء، ودوره في إعداد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ورعايته وتهيئته للمهمة الرسالية الإنسانية الربانية العظيمة الفاصلة في تاريخ البشرية.

ملاحظة مهمة: الدلالة الثانية لا تنفك منطقياً وواقعاً عن الدلالة الأولى، وقد أجمع المسلمون على قبول الدلالة الأولى، ولكنهم اختلفوا عجباً حول الدلالة الثانية، وهي في غاية الوضوح ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

العبر في يتم النبي محمد ﷺ: لهذا اليتم فوائد وعبر عالية.. منها الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: الإحساس بهموم المحرومين والمستضعفين في الأرض ومواساتهم، والمحافظة على كرامتهم الإنسانية وعدم الإساءة إلى مشاعرهم أو التقليل من شأنهم ومكانتهم في الحياة، والسعي الجدي للتخفيف من آلامهم وأحزانهم ومعاناتهم، والسعي الجدي لتحسين أوضاعهم وتطويرها، وعدم إهمال أحوالهم وقضاياهم الإنسانية والحقوقية العادلة، والحرص على إنصافهم وإعطائهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، وعدم السماح بتهميش قضاياهم وسلب حقوقهم من قبل الأغنياء والأقوياء في المجتمع، بسبب ضعفهم وقلة حيلتهم وضعف إمكانياتهم، فهذه رسالته في الحياة، وقد عايش الفقر والحرمان، ويعرف بحق وصدق شعور الفقراء والمحرومين ومعاناتهم الحقيقية في الحياة، وأنه يملك من العقل والقلب والشعور والدين والضمير وقوة الإرادة والتصميم، ما يحمله على الوقوف إلى صفهم والدفاع عن حقوقهم وقضاياهم، وعدم التفريط في شيء من ذلك مهما كان الثمن والتضحية، فقد وعده الله جل جلاله أن يعوضه أفضل وأجمل وأعظم وأجل عوض في الآخرة، عن كل ما يصيبه في سبيل الله الحق المبين، وفي

سبيل الحق والعدل والدفاع عن المحرومين والمستضعفين في الأرض، وأن ما يربطه بالله الحميد المجيد الكبير المتعال أكبر، وبالتالي فلن تأخذه ﷺ في الله تعالى الكبير المتعال لومة لائم كان.

الفائدة الثانية: بيان فضل الله عليه وتفرده برعايته وعدم إهماله، فقد كانت شخصية الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بحق فوق كل موازين علم النفس والتربية والاجتماع، فقد كان يتيماً وفقيراً، ولكنه كان بشهادة التاريخ أعظم رجل عرفه التاريخ كله، فقد تكفل الله برعايته ليكون سيد الرسل، ولم يترك اليتم والفقر آثاره السلبية في حياته، مما يدل على تفرد الرعاية الإلهية به.

الدرس الذي نستفيده من الموضوع.

علينا أيها الأحبة الأعزاء، ونحن نقف على هذا الفصل الكريم من حياة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، أن نأخذ العبرة والدرس بأن نفتش عن الموهوبين والعظماء من تحت ركام الفقر واليتم والحرمان، فكم من موهوب وعظيم أيها الأحبة الأعزاء، ضاعت موهبته وعظمته تحت ركام الفقر والحرمان، ولو توفرت الرعاية المناسبة لهؤلاء المحرومين، لحصد المجتمع من نتاج عبقريتهم وعظمتهم الكثير.. الكثير، ولكن

بسبب نقص الرعاية والإهمال، وجعل الفقراء والمحرومين بيد القدر يحكم عليهم قبضته الحديدية التي لا ترحم ولا تبقي ولا تذر، وبسبب نظرتنا المادية في الحياة التي تجعلنا ننظر إلى الفقراء والمحرومين نظرة دونية واحتقار وإهمال وعدم إنصاف، بسبب ذلك كله طمرت عبقريتهم ومواهبهم تحت الركام، وأقعدتهم ضربات الزمان والقدر المتتالية على الرأس والقلب حتى أصبحوا عاجزين متحيرين بلا حول لهم ولا قوة، لقد ضيع الإهمال ونقص الرعاية تلك المواهب وحرم المجتمع من بركات عطائها، كما أعمت النظرة المادية وتحقير الفقراء والمحرومين وعدم إنصافهم بسبب فقرهم، أعمت بصيرتنا فلم نلتفت إلى مواهبهم وإبداعاتهم رغم ما يبدونه من إبداع وتميز كبيرين، لهذا جاءت توجيهات الإسلام الإنسانية لاحترام الفقراء والمحرومين وعدم إهانتهم وتحقيرهم، والتركيز على وجوب رعايتهم كما اتضح قبل قليل.

التفسير الثاني للآية الشريفة المباركة: وهناك تفسيراً آخر للآية الشريفة المباركة ذكره علماء التفسير بناءً على المعنى الثاني لليتم، وهو: أن الله السميع البصير وجد محمداً ﷺ وحيداً لا نظير له في الفضائل والخصال الحميدة بين الناس، فاختاره للنبوة والرسالة الخاتمة وجمع الناس حوله، وهذا

القول صحيح في نفسه مائة.. بالمائة.

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾.

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

وجَدَكَ: وجد الشيء: أدركه وظفر به

ويقال وجد الجهل ضاراً والحلم نافعاً: أي علمه.

ضَالّاً: الضلال ضد الهدى والرشاد، وتعني المفقود والتائه غير المهتدي إلى الطريق السوي أو المستقيم أو الصحيح والحائر والغافل عن الشيء.

وضل سعيه: فشل فيه.

وأضله الشيطان: أعماه وأبعده عن الصواب.

وأضل أعمالهم: أبطلها وأذهب فائدتها.

والتضليل: التضييع والإبطال والتخسير.

فهدى: أرشد ودل وعرف وبين وساق إلى الطريق.

وقد ذكر علماء التفسير آراء شتى في تفسير الآية الشريفة المباركة، أذكر منها التفسيرات التالية.. وهي:

التفسير الأول للآية الشريفة المباركة: إن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ضل الطريق عدة مرات في طفولته، مرة في

شعاب مكة حين كان في حماية جده عبد المطلب، ومرة ثانية حين كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية تأتي به من البدو إلى مكة المكرمة لتسلمه إلى عبد المطلب فضل الطريق، ومرة ثالثة حين كان في رفقة عمه أبي طالب ضمن قافلة متجهة إلى الشام، فضل الطريق في ليلة ظلماء، وفي كل هذه المرات كان في رعاية الله الرقيب الحفيظ، وكان يهديه ويرده إلى جده عبد المطلب أو إلى عمه أبي طالب. وهذا الرأي يتناسب مع الضال بمعنى المفقود، ويدخل في سياق نعمة الإيواء في الآية السابقة، فكلا النعمتين تدلان على الرعاية الربانية الخاصة وعدم الإهمال أو التضييع.

التفسير الثاني للآية الشريفة المباركة: كان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ على الفطرة الإنسانية النقية وذا قلب طاهر، لم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسه من مدلهمات ثيابها، وكان يرى ما عليه قومه من الضلال في العقيدة والانحراف في السلوك والأوضاع وتفرق الكلمة، وأن الأديان السماوية المحيطة بهم كاليهودية والنصرانية قد دخلها التحريف والتبديل وانحرفت عن الفطرة الإنسانية النقية، ولم تعد تلائم الطبائع السليمة للإنسان، فتحير في أمر نفسه، وفر إلى الخلاء يطلب الهداية والنجاة، كما تحير في أمر قومه وسبيل هدايتهم إلى الحق وإلى الخير والسعادة، ونهيهم عن

المنكر الذي هم عليه، حتى نزل عليه الوحي فهداه الله بفضله إلى أسمى شريعة وأعظم دين، وعلمه ما لم يكن يعلم من أمر الشريعة ومناهجها التي لا يمكن أن تهتدي إليها العقول البشرية من تلقاء نفسها، فهدأت نفسه واطمأن قلبه وارتاح ضميره لتلك الهداية الربانية والنعمة العظيمة التي لا تعدلها أو تضاهيها أي نعمة في الأرض.

فالضلال حسب هذا الرأي: هو الخلو من الشريعة وليس الانحراف عن الحق، حيث شبه الحق سبحانه وتعالى الشريعة بالهدى، وشبه عدم وجودها بالضلال، من ضل في طريقه: إذا سلك طريقاً لا توصله إلى مقصوده، والمقصود هنا هو العلوم النافعة في الدين والشريعة التي تسمو بالعقل والروح معاً، وتحافظ على صحة وسلامة الجسد من المرض أو التلف، وأن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، لم يكن على علم بهذا النور قبل البعثة، ثم أنزل الله الهادي الكريم عليه هذا النور فهدي إليها بفضل الوحي والنبوة، وليكون رحمة للعالمين.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ـ٥٣].

التفسير الثالث للآية الشريفة المباركة: إن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ كان ضائعاً بين قومه، لا يعرفون قيمته ومكانته وعلمه وطريقه السوي في الحياة، فهداهم الله جل جلاله إليه ﷺ، وجمعهم حوله وعرفهم مكانته ومنزلته وعلمه وطريقه في الحياة، فجعلوه في المكان الذي يستحقه ﷺ، واستجابوا لدعوته وانتفعوا بهديه وعلومه، وكل ذلك بفضل نعمة الوحي والرسالة والمواهب الفريدة التي من الله جل جلاله بها عليه ﷺ.

التفسير الرابع للآية الشريفة المباركة: إن المراد من الضلال ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والنقاء والتقوى عنه ﷺ، وإنما إثبات الفقر الذاتي له، إذ لولا الهداية الربانية والإمداد الغيبي للرسول الأعظم الأكرم ﷺ، لما وصل من تلقاء ذاته إلى ما وصل إليه من الكمال الإنساني المطلق، والمقام الرسالي الشامخ، ولم يهتد إلى بداية الطريق ونهايتها، وإنما الله جل جلاله هو الذي أخذ بيده وأوصله إلى هذه المقامات والفضائل والكمال، فكل ما عنده من الفضل والهداية والكمال فهو من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه ﷺ شأنه شأن كافة الخلق، لا يملك شيئا من ذاته الوجودية، ولا يملك لنفسه من نفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً، فلا هدى له ﷺ ولا لأحد من الخلق

إلا من الله الفرد الصمد، فإن نفسه كانت ولا تزال في نفسها ضالة وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها ولم تفارقها أبداً منذ وجدت. ولهذا يقال في التشهد: (أشهد أن محمداً عبده ورسوله)، فهو عبد قبل أن يكون رسولاً.

وعجبي من الذين يتكبرون على الناس بعلمهم وإيمانهم، كيف لا يتعلمون الدرس من هذا الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ومن هذه الآية الشريفة المباركة !!

الدروس التي نستفيدها من الموضوع

الدرس الأول: ضرورة تواضع العلماء والمؤمنين وعدم تكبرهم على الناس بعلمهم وإيمانهم، فإن التكبر قبيح في نفسه، وهو أقبح ما يكون عند العالم والمؤمن، لأن التكبر يناقض حقيقة العلم والإيمان وجوهريهما وينقض غرضيهما في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

الدرس الثاني: ضرورة شعور العالم بهموم الناس وقضاياهم والارتباط بهم، وتوظيف العلم لمنفعة الناس

وهدايتهم، وأن يطلب المزيد من العلم في سبيل رقي الناس وتطورهم ورخائهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

في البحار ـ ج١ ـ كتاب العلم ـ ص ١٧١ ـ الحديث ٢٤ ـ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانه، واقتبسوه من أهله، فإن تعليمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله تعالى، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل الجنة، والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الاخلاء، يرفع به أقواما فيجعلهم في الخير قادة تقتبس آثارهم، ويهتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، الذكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل

الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، العلم إمام العمل.. والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله منه حظه).

وفيه ـ ج٢ ـ ص٥ ـ الحديث ٨ ـ بالإسناد إلى أبي محمد العسكري عليه السلام.. قال: قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي إبليس وعفاريته، يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا، وعن أن يتسلط عليهم إبليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا، كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر ألف.. ألف مرة، لأنه يدفع عن أديان محبينا، وذلك يدفع عن أبدانهم).

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

معاني مفردات الآية الشريفة المباركة

عائِلاً: العائل في الأصل كثير العيال، ثم استخدم بمعنى الفقير سواء أكان عنده عيال أم لم يكن، وللفظ في الآية الشريفة المباركة معانٍ أخرى سوف نقف عليها بعد قليل.

فَأَغْنَى: جعلك غنياً، والغنى كثرة المال، وللفظ في الآية الشريفة المباركة معانٍ أخرى ذكرها المفسرون سوف نقف عليها بعد قليل أيضاً.

ذكر علماء التفسير للآية الشريفة المباركة عدة تفسيرات نذكر منها التفسيرات التالية:

التفسير الأول للآية الشريفة المباركة: كان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ فقيراً ليس له مال، فلم يرث عن أبيه إلا ناقة وجارية، فهيأ الله جل جلاله له أسباب الرزق، وأغناه لكي لا يحس بالفقر أو يتطلع إلى ما حوله من ثراء، وذلك من خلال الأسباب التالية:

السبب الأول: الزواج من خديجة بنت خويلد عليها السلام، تلك المرأة المخلصة الوفية لله جل جلاله ولزوجها، والتي كانت تملك المال الوفير فوهبته له ﷺ ووضعته تحت تصرفه، فأغناه الله تعالى بسببها، وقد أنفقه ﷺ في سبيل الله تعالى، ولتحقيق أهداف الرسالة السماوية العظيمة وخدمة الإنسانية، ولم يحرص عليه أو يبخل به.

السبب الثاني: الكسب من ربح التجارة في مال خديجة عليها السلام.

السبب الثالث: ما أفاء الله عليه من الغنائم بعد ظهور الإسلام.

قال ﷺ: (جعل رزقي تحت ظل رمحي).

السبب الرابع: الخمس.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

السبب الخامس: أغناه الله برعاية جده عبد المطلب ثم عمه أبي طالب.

التفسير الثاني للآية الشريفة المباركة: وجدك ذا عيال فأغناك بما هيأ لك من أسباب الرزق.

التفسير الثالث للآية الشريفة المباركة: وجدك ذا عيال، وعيالك قومك، وأنت تمولهم بأرزاقهم الروحية والمعنوية من العلم والمعرفة والتقوى.. فأغناك بالوحي.

معانٍ أخرى للغنى في الآية الشريفة المباركة: ذكر علماء التفسير معانٍ أخرى للغنى في الآية الشريفة المباركة، أذكر منها المعاني التالية:

المعنى الأول: أغناه الله برعاية جده عبد المطلب ثم برعاية عمه أبي طالب، وليس بالمال الذي كان في يده.

المعنى الثاني: أغناه الله بالقناعة وما منحه الله جل جلاله من فضله وجعله عزوفاً عن الدنيا، وليس الإغناء بكثرة المال، فقد أنفق الأموال الضخمة التي وضعتها خديجة عليها السلام تحت تصرفه، أنفقها في سبيل الله ﷻ ولم يحرص عليها.. ولم يبخل بها.

المعنى الثالث: أغناه باستجابة دعوته.

الدروس التي نستفيدها من الآية الشريفة المباركة

الآية الشريفة المباركة زاخرة بالدروس والعبر العالية.. نذكر منها الدروس والعبر التالية:

الدرس الأول ـ الحياة الزوجية: لقد فرض الله جل جلاله على الزوج المهر والنفقة للزوجة، حتى وإن كان الزوج فقيراً والزوجة غنية وغير محتاجة، وهذا ما أجمع عليه المسلمون على اختلاف مذاهبهم. والنفقة تشمل: المسكن والمأكل والمشرب والكسوة ووسائل الزينة من عطر وخضاب وغيره، وتشمل العلاج والأثاث والأدوات المنزلية التي تستخدم للطبخ والكنس والتنظيف، وما تحتاجه في فصل الشتاء من وسائل التدفئة، وفي فصل الصيف من وسائل التهوية والتبريد، وسائر ما تحتاجه بحسب حالها وشرفها

وزمانها على ما هو المتعارف لأمثالها، وذلك في سبيل تعزيز الدور القيادي للرجل في الأسرة، وأن لا تبقى العلاقات الأسرية علاقة سطحية وشراكة مادية، وهذا يكشف لنا عن أهمية تواضع الزوجة لزوجها وتمكينه من ممارسة دوره القيادي في داخل الأسرة، في سبيل تعزيز الاستقرار في داخلها، وتمكينها من تأدية وظائفها ودورها في الحياة، بدون أن ينال ذلك شيئاً من القيمة الإنسانية للمرأة.. ومن كرامتها، لأن المسألة كلها تتعلق بالجانب الإداري وتقاسم الأدوار بين الزوجين، وليس بتفضيل أحد الزوجين على الآخر.

أيها الأحبة الأعزاء: كان ذلك جانباً من الوجه الإداري والقانوني في تنظيم العلاقة الزوجية، وهناك وجه آخر يمثل الدعامة الأساسية في تكوين الأسرة، ويجب علينا أن نعطيه الأكثر من الاهتمام، وهو الجانب المعنوي والعلاقة العاطفية والإنسانية بين الزوجين وجميع أفراد الأسرة، حيث ينبغي أن تسود بين الزوجين وجميع أفراد الأسرة، المحبة والرحمة والاهتمام والاحترام والتفاهم والمواساة بين جميع أفرادها، والرفق والعطف والحنان على بعضهم، والإشادة ببعضهم على كل عمل طيب وإنجاز حسن، والتشاور بينهم في إدارة أمور الأسرة ومختلف شؤونها، والتعاون من أجل المحافظة على أمنها واستقرارها الروحي والمادي، ونجاحها في تأدية

وظائفها وتحقيق أهدافها، وعدم السماح بتفككها أو النيل من تماسكها أو تعرضها لهزات تهدد وجودها أو تعطل وظائفها واستقرارها، وغير ذلك من العوامل التي تحتاجها الأسرة لتوفر الأجواء الحميمة المناسبة التي تمثل جوهر وجودها وهو مسؤولية مشتركة بين جميع أعضائها، وهذا هو الدرس الذي نستفيده من الحياة الزوجية للرسول الأعظم الأكرم ﷺ وزوجته المباركة الطاهرة خديجة بنت خويلد أم الزهراء عليها السلام، التي أعطت قلبها ومالها لزوجها رسول الله ﷺ، وصدقته ووقفت إلى جانبه ولم تسلمه للدهر أو للأعداء، وذابت بين الزوجين الحواجز، وانصهر كل منهما في الآخر في حياة زوجية ناجحة ومتميزة، فلم يقل أحدهما للآخر هذا لي وذاك لك بحكم القانون، وإنما كان كل منهما يقول: كل ما عندي فهو لك وأنا لك من أجل راحتك وسعادتك، ونحن عبدان من عباد الله سبحانه وتعالى وفي طاعته وخدمة دينه وعباده، نرجو بذلك وجه الله ولا نريد من خلقه جزاءً ولا شكوراً.

وقد أحب الرسول الأعظم الأكرم ﷺ زوجته خديجة بنت خويلد عليها السلام حباً جماً متميزاً، فلم يحب مثلها أحداً من زوجاته لما تميزت به من التصديق له ومواساته بمالها ووجاهتها وعقلها وقلبها، وظل وفياً لها.. ولم ينسَ ذكرها الحسن الجميل عليها السلام طوال حياته ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ....﴾ [البقرة: ١٨٧].

فعبارة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تدل على حالة التمازج والتداخل والالتصاق الروحي والجسدي بين الزوجين، حيث تتداخل المشاعر والأحاسيس بين الاثنين، ويكون كل واحد من الزوجين في خدمة الآخر وحريص على راحته وسعادته، مما يجعل من الزوجين كياناً واحداً في غاية القوة والتلاحم، وبالتالي يغلب هذا الالتصاق والتمازج على الجانب القانوني الذي يقوم بدور تنظيمي حدي للفصل بين الحقوق والواجبات، ونؤمن بقيمته ونؤكد عدالته في الفصل بين الزوجين في حالة التنازع والاختلاف.

أيها الأحبة الأعزاء: في حالة الالتصاق الروحي والجسدي والتناغم العاطفي بين الزوجين، فإنه يغلب على الجانب القانوني التنظيمي الحاد ويلطف من حدته في الحياة الزوجية، ليساهم بشكل أفضل في تحقيق أهداف الحياة الزوجية الإنسانية والنفسية والاجتماعية، على أكمل وأحسن

وخير وجه، وهذا ما وجدناه جلياً بأفضل صورة وأكملها في الحياة الزوجية بين الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وزوجته البارة التقية خديجة بنت خويلد (رضي الله تعالى عنها وأرضاها) التي أعطت عقلها وقلبها ومالها وجاهها لحياتها الزوجية، لتقدم للبشرية في تاريخها الطويل إلى نهاية الدهر القدوة الحسنة من نفسها في حياتها الزوجية والإنسانية والاجتماعية، مما يؤكد أهمية هذا الوجه في الحياة الزوجية، وهذا ما ينبغي لنا أن نقتدي به ونكون عليه جميعاً في حياتنا الزوجية والأسرية لكي نحصل على السعادة الزوجية الصحيحة والحقيقية ونجني ثمارها الطيبة اليانعة في حياتنا.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: الرجل يأخذ من مال امرأته، والمرأة تأخذ من مال زوجها ـ الحديث ١ ص ١٣٦ ـ عن سعيد بن يسار.. قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك.. امرأة دفعت إلى زوجها مالاً من مالها ليعمل به، وقالت له حين دفعت إليه: أنفق منه، فإن حدث بك حدث، فما أنفقت منه حلالًا طيباً، فإن حدث بي حدث، فما أنفقت منه فهو حلال طيب، فقال: أعد علي يا سعيد المسألة، فلما ذهبت أعيد المسألة عليه، اعترض فيها صاحبها، وكان معي حاضراً، فأعاد عليه مثل ذلك، فلما فرغ أشار بإصبعه إلى صاحب المسألة فقال: يا هذا إن كنت تعلم أنها قد أفضت

بذلك إليك «أي سلمت أمره إليك» فيما بينك وبينها وبين الله ﷻ، فحلال طيب «ثلاث مرات» ثم قال: يقول الله جل اسمه في كتابه: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

الدرس الثاني ـ مقاومة الفقر وعدم الاستسلام إليه وحسن التصرف معه: قد تصاب الأسرة بالفقر، فتكون عاجزة عن توفير حاجاتها الضرورية والأساسية، وقد أثبتت الدراسات والوجدان بأن الفقر يترك تأثيرات سلبية خطيرة جداً على الأطفال ما لم تحسن الأسرة الفقيرة التصرف معهم، وهم الأمانة الكبرى في أعناق الآباء والأمهات، فالطفل عادة ما يقارن نفسه بالآخرين من ناحية الألبسة والأطعمة والمسكن والمصروف اليومي والإمكانيات الأخرى، ويضيق صدره عندما يرى نفسه أقل من الآخرين، ويشعر بالحزن وبالخوف والاضطراب وبالدونية أي يرى نفسه صغيرة حقيرة بين الناس.

مسألتان في غاية الأهمية: وبهذه المناسبة أرغب في التنبيه إلى مسألتين أرى أنهما في غاية الأهمية.. وهما:

المسألة الأولى ـ مقاومة الفقر وعدم الاستسلام إليه: قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (كاد الفقر أن يكون كفراً) (كنز

العمال ـ ج٦ ـ ص ٤٩٢ ـ الحديث ١٦٦٨٢).

وقال ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، فقال رجل: أيعدلان؟ فقال ﷺ: نعم) (كنز العمال ـ ج ٦ ـ ص ٤٩٣ ـ الحديث ١٦٦٨٧).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (الفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلده).

وقال عليه السلام: (الفقر الموت الأكبر).

وقال عليه السلام: (الفقر أشد من القتل).

وقال لابنه الحسن عليه السلام: (لا تلم إنساناً يطلب قوته، فمن عدم قوته: كثر خطاياه. يا بني: الفقير حقير لا يسمع كلامه، ولا يعرف مقامه، لو كان الفقير صادقاً.. يسمونه كاذباً، ولو كان زاهداً.. يسمونه جاهلاً. يا بني: من ابتلي بالفقر ابتلي بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقص في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه، فنعوذ بالله من الفقر).

وفي كنز العمال ـ ج٦ ـ ص ٤٩٣ ـ الحديث ١٦٦٨٨ ـ (تعوذوا بالله من الفقر والقلة والذلة وأن تظلموا أو تظلموا).

أيها الأحبة الأعزاء: كانت تلك طائفة من الأحاديث الشريفة المباركة عن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وعن أهل

البيت ﷺ، تكشف لنا عن عمق الأزمة الإنسانية والاجتماعية للفقر، وبالتالي فهي تفرض علينا مقاومة الفقر بالتصميم والإرادة الصلبة، وعدم الاستسلام إليه بأي حال من الأحوال، مع التأكيد على أن الفقر ليس قدراً محتوماً في أغلب الأحوال، وسوف أناقش بعد قليل معالجة مشكلة الفقر على مستوى الدولة، أما هنا فسأقدم بعض النصائح لمقاومة الفقر على مستوى الأسرة.

نصائح لمقاومة الفقر على مستوى الأسرة: وهي كالتالي:

النصيحة الأولى: السعي الجدي لدى رب الأسرة لتحسين مستوى المعيشة، والبحث عن فرص عمل أفضل، والعمل الإضافي إذا اقتضى الأمر ذلك، والاستفادة من كل فرصة متاحة للاستثمار وزيادة دخل الأسرة، والسعي الجدي للادخار ولو القدر اليسير من المال، والحرص على الاستغناء عن الناس، مع الاهتمام بالتعليم والتدريب المهني، والحرص على بناء النفس وتطويرها، والحرص على التقدم في السلم الوظيفي والمطالبة به بعد توفر شروطه وعدم السكوت عنه، والاحتجاج على كل تمييز في التوظيف والترقيات وتولي المناصب، والحذر من التقصير في العمل والكسل في أداء الواجب.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: من كد على عياله ـ الحديث ١ ـ ص٨٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله).

وفيه ـ الحديث ٣ ـ ص ٨٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إذا كان الرجل معسراً فيعمل بقدر ما يقوت به نفسه وأهله ولا يطلب حراماً فهو كالمجاهد في سبيل الله).

وفيه ـ باب: الحث على الطلب والتعرض للرزق ـ الحديث ٦ ـ ص٧٨ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال).

وفيه ـ الحديث ٧ ـ ص٧٨ ـ عن هشام الصيدلاني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (يا هشام إن رأيت الصفين قد التقيا فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم).

وفيه ـ الحديث ١١ ـ ص٧٩ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (أيعجز أحدكم أن يكون مثل النملة؟، فإن النملة تجر إلى جحرها).

وفيه ـ باب: كراهية النوم والفراغ ـ الحديث ١ ـ ص ٨٤ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (كثرة النوم مذهبة للدين والدنيا).

وفيه ـ الحديث ٣ ـ ص٨٤ ـ عنه عليه السلام قال: (إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ).

وفيه ـ باب: كراهية الكسل ـ الحديث ٤ ـ ص ٨٥ ـ قال أبو جعفر عليه السلام: (إني لأبغض الرجل «أو للرجل» أن يكون كسلانا عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل).

وفيه ـ الحديث ٧ ـ ص ٨٥ ـ ٨٦ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (تجنبوا المنى «ما يتمناه الإنسان بقلبه» فإنها تذهب بهجة ما خولتم «ما أنعم الله به عليكم» وتستصغرون بها مواهب الله تعالى عندكم «لعدم توظيفها والاستفادة منها» وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنسكم «لأن التمني لا يغير في الواقع شيئاً»).

وفيه ـ الحديث ٨ ـ ص ٨٦ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: (إن الأشياء لما ازدوجت، ازدوج الكسل والعجز، فنتجا بينهما الفقر).

وفيه ـ الحديث ٩ ـ ص٨٦ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (ولا تكسل عن معيشتك فتكون كلا على غيرك.. أو قال: على أهلك) (التردد بين أهلك وغيرك من الراوي).

النصيحة الثانية: التربية الاقتصادية للأبناء، وتعريفهم منذ الصغر

على أنواع الأعمال وخصوصياتها، وكيفية مواجهة

صعوباتها، وجعل العمل الشريف مرغوباً عندهم ومحبوباً إليهم، وحثهم على القيام ببعض الأعمال التي تناسبهم، لكي تزداد خبرتهم بفنون العمل وأساليب الحياة ومشاكلها، وتحذيرهم من البطالة وجعلهم يكرهونها ويفرون منها فرارهم من الموت الأحمر والمرض القاتل، وتربيتهم على التخطيط لاستقرار حياتهم وتقدمها، واختيار الأعمال التي تساهم في رقيهم الفكري والنفسي، والتأكيد لهم على أهمية التعليم والتدريب المهني في تقدمهم الوظيفي والمهني.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: الصناعات ـ الحديث ١ ـ ص١١٣ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: (إن الله عز وجل يحب المحترف الأمين).

وفيه ـ الحديث ٤ ـ ص ١١٤ ـ عن إسحاق بن عمار قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فخبرته أنه ولد لي غلام، فقال: ألا سميته محمداً؟ قال: قلت: قد فعلت، قال: فلا تضرب محمداً ولا تسبه جعله الله قرة عين لك في حياتك وخلف صدق من بعدك، فقلت: جعلت فداك في أي الأعمال أضعه؟ قال: إذا عدلته عن خمسة أشياء فضعه حيث شئت، لا تسلمه «أي لا تعطه لمن يعلّمه إحدى هذه المهن» صيرفياً فإن الصيرفي لا يسلم من الربا، ولا تسلمه بياع

الأكفان فإن صاحب الأكفان يسره الوباء إذا كان، ولا تسلمه بياع الطعام فإنه لا يسلم من الاحتكار، ولا تسلمه جزاراً فإن الجزار تسلب منه الرحمة، ولا تسلمه نخاساً فإن رسول الله ﷺ قال: شر الناس من باع الناس).

وهنا يجدر بنا ذكر بعض التعليقات المهمة على الرواية الشريفة، وهي التعليقات التالية:

التعليق الأول: جاءت بعض الروايات تجيز المهن المذكورة، وبالتالي فقد حمل الفقهاء النهي على الكراهية وليس الحرمة، وهو المشهور، وقال بعض الفقهاء: بعدم الكراهة لمن يثق من نفسه عدم الوقوع في محرم. (هامش الكافي الشريف).

التعليق الثاني: ترشدنا الرواية الشريفة إلى أهمية تدقيق الاختيار للوظيفة أو المهنة، والبحث في الخيارات عن الأفضل الذي يساهم في رقينا الفكري والروحي والاجتماعي قدر المستطاع.

التعليق الثالث: تبرز الرواية وروايات غيرها كثيرة، أهمية التدريب والتأهل والإعداد الفكري والنفسي والأخلاقي والمهني للطفل، والعمل على ضمان مستقبله بالوسائل المتاحة قدر المستطاع.

النصيحة الثالثة لمقاومة الفقر على مستوى الأسرة: ترشيد الإنفاق، وترتيب سلم الاولويات في الإنفاق، وتجنب الإنفاق الاستهلاكي والإسراف والتبذير في الأموال والمواد، والسعي الجدي للادخار قدر المستطاع.

في الكافي الشريف ـ ج١ ـ باب: صفة العلم وفضله وفضل العلماء ـ الحديث ٤ ـ ص ٣٢ ـ قال أبو جعفر عليه السلام: (الكمال كل الكمال: التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة) (من تقدير المعيشة: ترك الإسراف).

وفيه ـ ج٥ ـ باب: إصلاح المال وتقدير المعيشة ـ الحديث ٤ ـ ص ٨٧ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إنه لا يصلح المسلم إلا ثلاثة: التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وحسن التقدير في المعيشة).

وفيه ـ الحديث ٥ ـ ص٨٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيراً رزقهم الرفق في المعيشة).

وفيه ـ الحديث ٦ ـ ص ٨٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (عليك بإصلاح المال، فإن فيه منبهة للكريم «أي جعله عالياً شريفاً» واستغناء عن اللئيم).

قال الفيض (رحمه الله تعالى) في شرح الحديث: (إنما كان صلاح المال منبهة للكريم، لأن بالإصلاح ينمو المال،

وبنمو المال يتيسر الكرم، وبالكرم يعلو الكريم ويشرف).

وفي كنز العمال - ج٣ - ص ٥٠ - الحديث ٥٤٣٧ - (من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تجبر قصمه الله).

وفيه - ص ٥٢ - الحديث ٥٤٥٢ - (إن أحدكم يأتيه الله برزق عشرة أيام في يوم، فإن هو حبس عاش تسعة أيام بخير، وإن هو وسع قتر عليه تسعة أيام).

وفيه - ص٥٣ - الحديث ٥٤٥٤ - (إياكم والسرف في المال والنفقة، وعليكم بالاقتصاد، فما افتقر قوم قط اقتصدوا).

وفيه - ص ٤٤٤ - الحديث ٧٣٦٥ - (إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله في البنيان والماء والطين).

النصيحة الرابعة: الحرص على بناء نظام قيمي راقي لدى الأبناء عن العمل وقيمة الإنتاج، يحترمون بموجبه كل عمل شريف منتج، ويحرصون على الوقت وزيادة الإنتاج والأمانة والإتقان في العمل وتطويره مهما كانت صعوبة ظروف العمل، بدافع من التقوى والمسؤولية الوطنية والقومية والإسلامية.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: الاستعانة بالدنيا على الآخرة ـ الحديث ٥ ـ ص٧٢ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (لا خير في من لا يحب المال من حلال يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه).

وفيه ـ الحديث ٧ ـ قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: (ملعون من ألقى كله على الناس) (الكل: الأهل والعيال ومن يكون عالة على غيره).

وفيه ـ الحديث ١١ ـ ص٧٢ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (غنى يحجزك عن الظلم خير من فقر يحملك على الإثم).

وفيه ـ باب: ما يجب من الإقتداء بالأئمة عليهم السلام في التعرض للرزق ـ الحديث ١٠ ـ ص ٧٥ ـ ٧٦ ـ عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه قال: رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له قد استنقعت قدماه في العرق، فقلت له: جعلت فداك أين الرجال؟ فقال: يا على قد عمل باليد من هو خير مني في أرضه ومن أبي، فقلت له: ومن هو؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وآبائي عليهم السلام، كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء الصالحين).

وفيه ـ الحديث ٩ ـ ص ٧٣ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرج ومعه أحمال النوى، فيقال له:

يا أبا الحسن ما هذا معك؟ فيقول: نخل إن شاء الله، فيغرسه فلم يغادر منه واحدة) (وهو دعوة إلى الدقة والإتقان).

وفيه ـ الحديث ١٣ ـ ص٧٦ ـ عن أبي عمر الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام وبيده مسحاة «مسح الأرض: يعني قاسها بالذراع» وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له والعرق يتصاب عن ظهره، فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك، فقال لي: (إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة).

وفيه ـ باب: شراء العقارات وبيعها ـ الحديث ٢ ـ ص٩١ ـ عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (ما يخلف الرجل شيئاً أشد عليه من المال الصامت، قلت: كيف يصنع به؟ قال: يجعله في الحائط يعني في البستان أو الدار) (وهو دعوة إلى الاستثمار وتنمية المال).

وفي كنز العمال ـ ج ٣ ـ ص ٢٣٨ ـ الحديث ٦٣٣٢ ـ (الدراهم والدنانير خواتم الله في أرضه، من جاء بخاتم مولاه قضيت حاجته).

وفيه ـ ص ٢٣٨ ـ الحديث ٦٣٣٣ ـ (إذا كان في آخر الزمان لا بد للناس فيها من الدراهم والدنانير يقيم بها الرجل دينه ودنياه).

وفيه ـ ص ٢٣٨ ـ الحديث ٦٣٣٤ ـ (ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً، فإن الدنيا بلاغ الآخرة، ولا تكونوا كلاً على الناس).

وفيه ـ ص ٩٠٧ ـ الحديث ٩١٢٨ ـ (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه).

وفيه ـ ص٩٠٧ ـ الحديث ٩١٢٩ ـ (إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يحسن).

الدرس الثالث ـ كيف تتصرف الدولة لمواجهة الفقر:
يعتبر الفقر مشكلة إنسانية، لأنه سبب لضياع حق الإنسان في الحياة الكريمة، ويعتبر مشكلة اجتماعية، لأنه سبب لتخلف المجتمع وعدم تطوره، والقضاء على الفقر من أهم مسؤوليات الحكومات في دول العالم، والطريق إلى القضاء على الفقر يمر عبر عدة خطوات عديدة رئيسية، منها على سبيل المثال لا الحصر.. الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: توفير الإرادة السياسية، ووضع استراتيجية وطنية واضحة الأهداف والآليات لمكافحة الفقر، يقوم بوضعها أهل الاختصاص من الكفاءات العلمية الوطنية المخلصة، وأن لا يستغني السياسيون بأنفسهم وينفردوا

بالتخطيط مستقلين عن أهل الاختصاص، أو يجيروا المسألة لأغراض سياسية حقيرة لا تصب في المصلحة الوطنية ولا تراعي البعد الإنساني في التعامل مع المشكلة، فالفقر في كثير من الدول يوظف لأغراض سياسية حقيرة وغير مشروعة، وبالتالي لا تسعى الحكومات في تلك الدول للقضاء على الفقر، وهذه الحكومات تفقد شرعيتها لأنها تنقض الغرض من وجود الحكومات، وتهدد الاستقرار والأمن الوطني، وتعيش على عذابات الشعوب بصورة حقيرة غير إنسانية.

الخطوة الثانية: القضاء على الفساد الإداري والمالي الذي يهدر الثروة ويضيع الجهود والطاقات ولا يحسن استثمارها، ومحاربة الإغناء غير المشروع، وترشيد النفقات العامة لاسيما المرتبطة منها بتوفير الامتيازات المبالغ فيها لكبار الموظفين مثل تجهيز المكاتب الفخمة لهم، وإقامة الحفلات الباذخة بدون مبرر على حساب الدولة، والضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه استغلال السلطة لسرقة الأموال العامة أو الاستخدام غير المشروع للممتلكات الحكومية من أجل الإثراء على حساب الشعب ومصالحه، وهو خلاف الأمانة المهنية والوطنية والدينية.

الخطوة الثالثة: الحرص على عدالة توزيع الثروة وتقليل

فوارق الدخول بين المواطنين، واقتسام ثمار النمو الاقتصادي بين المواطنين بدون تمييز، بحيث ينعكس تطور الاقتصاد الوطني إيجابياً على كافة المواطنين في تحسين نوعية حياتهم، وأن يكون أول المستفيدين من هذا النمو الاقتصادي.. هم الفقراء، ووضع حد أدنى للأجور وضمان الأجور العادلة للعمال على أعمالهم، وإعطاء الأفضلية للفقراء في الزيادات وتحسين مستوى المعيشة، واتباع مبدأ التصاعدية في الضرائب - أي زيادة الضريبة كلما زاد دخل الفرد، وعدم التمييز بين المواطنين في التوظيف، والتوظيف على أساس الكفاءة لا غير، ... الخ، وهذا من شأنه ترسيخ الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي، مما يساهم بدوره في التقدم الاقتصادي وتسريع عمليات الإنتاج.

الخطوة الرابعة: الاهتمام بالتعليم والتدريب المهني وتطويرهما، وربطهما بسوق العمل والاحتياجات الوطنية الأخرى للتطوير والتقدم على كافة الأصعدة، وإحلال المواطنين مكان الأجانب لاسيما في الوظائف العليا، والتركيز على تحسين الزيادة النوعية والكمية في عوامل الإنتاج، وتنمية الموارد والاستثمار الوطني.

الخطوة الخامسة: وضع برامج التنمية للأسر الفقيرة،

تتضمن توفير فرص عمل جيدة، وتقديم القروض بدون أرباح من أجل الاستثمار، وتوفير المساكن الجيدة وترميم وتأهيل المساكن القائمة، وتقديم الإعانات المالية الشهرية لأرباب الأسر الفقيرة غير القادرين على العمل، بسبب الإعاقة أو المرض أو الشيخوخة، بهدف تحسين نوعية الحياة لهذه الأسر.

الخطوة السادسة: تطوير البنى التحتية في المناطق الفقيرة من الشوارع والجسور والخدمات وغيرها، وتشجيع الاستثمارات النوعية فيها، والحرص على أن تعود هذه الاستثمارات بالخير على هذه المناطق وتطويرها، وأن يكون الحرص على توفير فرص عمل أفضل وزيادة الأجور وتحسين مستوى المعيشة للمواطنين من الأهداف الاستراتيجية في التنمية والتطوير الاقتصادي والاجتماعي، وفي كل عملية من عمليات الاستثمار الوطني.

الخطوة السابعة: الاهتمام بتنمية روح الانتماء الوطني لدى المواطنين، بحيث يتحمل جميعهم المسؤولية إلى جانب الدولة في القضاء على الفقر، ومساعدة الفقراء على النهوض وتحسين أوضاعهم وإصلاح أمورهم، مما يعود بالخير على الوطن واستقراره وتقدمه، وهذا ما تفرضه مسؤولية الانتماء

الوطني.. والديني. مع التأكيد هنا على أهمية التشجيع على تنمية العمل المؤسساتي وتطويره في التعاون الشعبي لمكافحة الفقر والقضاء على هذه الآفة الخطيرة على المجتمعات والأوطان، وأن يهتم العمل الشعبي الفردي والمؤسساتي بالاستثمار وتنمية الموارد والتعليم والتدريب المهني وكسب المهارات المهنية، وتوفير فرص عمل أفضل للأسر الفقيرة، وعدم الاقتصار على تقديم المساعدات المالية والعينية للأسر الفقيرة والمحتاجة فحسب.

الخطوة الثامنة: ضرورة اتصاف القائد بالقناعة والتقوى لكي لا يمد عينيه إلى أموال الناس وأملاكهم، فتتضخم ثرواته على حساب أبناء الشعب، فيعيش الثراء الفاحش، ويعيش أبناء الشعب الفقر المدقع، فهذا خلاف أمانة الرعاية والحكومة، ويهدد أمن البلد وتقدمه واستقراره، ويجب أن يتصف القائد بسخاء النفس والجود والإنفاق في سبيل الله والوطن وتنمية الشعب، وأن لا يخزن الأموال في البنوك أو يخرجها خارج البلاد، لكي نضمن تطور حركة التنمية في الوطن وتقدمه وازدهاره، وأنبه هنا إلى ضرورة مواساة القائد للمواطنين وعدم تميزه عليهم، لكي نضمن المحبة بين المواطنين والقائد وتعاونهم معه من أجل تقدم الوطن واستقراره.

وكانت رغبتي في أن أجعل هذه الخطوة درساً منفرداً في ضوء الإقتداء بالرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأفصل الحديث فيها، إلا أنني راعيت المقام الذي لا يتسع لأكثر من ذلك.

المسألة الثانية ـ كيف تتصرف الأسرة للتخفيف من آثار الفقر على الأبناء؟:

أيها الأحبة الأعزاء: يتفاوت الأطفال في قدرتهم على تحمل الفقر والحرمان، ويلعب تصرف الأبوين دوراً حاسماً في التقليل من آثار الفقر على الأطفال أو مضاعفته عليهم، وقد وجدنا في واقع الحياة ـ كما هو الحال مع الرسول الأعظم الأكرم ﷺ ـ بأن أطفالاً فقراء وأيتاماً، تمتعوا بروح معنوية عالية، وأصبحوا عظاماً في المجتمع والتاريخ، بفضل الله تعالى، وبفضل رعاية الأبوين ووعيهم. وهنا أنصح بالتالي:

النصيحة الأولى: الحذر من إظهار اليأس والتأفف والضجر وندب الحظ والخجل من الفقر أمام الأطفال، لأن ذلك يؤثر سلباً على معنوياتهم، ويحط من مكانتهم في أنفسهم، ويمهد لانحرافهم.

ومن جهة ثانية: ينبغي الحرص على بث السعادة والمرح والأمل في روح الأطفال، وتصوير الدنيا جميلة في عين

الطفل.. وفكره.. وقلبه، وأن المستقبل مشرق أمامه، وذلك من خلال الإكثار من الشكر والثناء على رب العباد، والاهتمام بالحب.. وبالعطف.. والحنان.. والإغداق على الطفل كثيرا من ذلك، فهو خير تعويض عن النقص في الحاجات المادية، والاهتمام بالنظافة والجوانب الجمالية في الملابس والمنزل وغيرهما من جوانب الحياة المختلفة، وهي أمور لا تتعارض مع الفقر، والفقر لا يلزم عنه إهمال النظافة والجمال أو تضييعهما.

في كنز العمال ـ ج٦ ـ ٦٣٩ ـ الحديث ١٧١٦٤ ـ (أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة الناس) (شامة الناس: أي ظاهرون).

وفيه ـ ص ٦٣٩ ـ الحديث ١٧١٦٦ ـ (إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتباؤس).

وفيه ـ ص ٦٣٩ ـ الحديث ١٧١٦٧ ـ (إن الله جميل يحب الجمال، وسخي يحب السخاء، ونظيف يحب النظافة).

النصيحة الثانية: إطلاع الأبناء ـ حسب استيعابهم ـ على دخل الأسرة وطرق الصرف، وترتيب أولويات الإنفاق في داخل الأسرة، ومشاورتهم في جميع ذلك.

النصيحة الثالثة: تفهيم الأطفال أسباب فقر الأسرة، وأنه غير راجع إلى تقصير الأبوين، وإظهار حرص الأبوين على الكد والسعي الحثيث من أجل زيادة دخل الأسرة من أجل التوسعة على العيال، وهذا ما يجب عليهم القيام به فعلاً.. كما أمرهم به الدين الحنيف، وتفرضه عليهم الفطرة الإنسانية والمسؤولية الوطنية والقومية والإسلامية.

النصيحة الرابعة: الدقة في ترتيب أولويات الحاجات حسب أهميتها، والحرص الشديد جداً على توفير الحاجات الأساسية للأطفال وعدم حرمانهم منها قدر المستطاع، نظراً لآثارها الخطيرة على الأطفال، أما تهذيب رغبات الأطفال فلا يخاف منها عليهم. وينبغي الحرص على تقديم حاجات الأطفال على حاجات الأبوين، وأن لا يمارس الأبوان الأنانية مع أبنائهم، والحذر من الإنفاق المظهري مثل الإنفاق على الزينة، على حساب الحاجات الأساسية للأبناء والأسرة مثل التعليم والصحة.

النصيحة الخامسة: تعميق النظام القيمي في نفس الطفل وترسيخه خاصة قيمة القناعة، فهي كنز لا يفنى، بشرط أن لا تكون القناعة ذريعة للتقاعس عن تحسين الوضع وتطويره، كما يفهمه البعض خطأً، ولا يتسع المقام لمزيد من الشرح والتفصيل، وتعليم الطفل بأن كرامة الإنسان وشرفه في الحياة

فوق المال وفوق كل شيء مادي أو منصب أو وجاهة، فلا يهدر كرامته وشرفه من أجل الحصول على المال أو على غيره من أمور الحياة الفانية.

المحور الرابع

الوصايا الربانية الإنسانية العظيمة للرسول الأعظم ﷺ.. ولجميع أتباعه إلى يوم القيامة

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ ـ ١١].

في هذه الآيات الشريفة المباركة الثلاث: أمر الله تعالى رسوله الأعظم الأكرم ﷺ، وكافة المسلمين إلى يوم القيامة، أمرهم بثلاث وصايا إنسانية عظيمة، تنتشلهم من حضيض الجاهلية المظلم غير الإنساني الذي يضيع فيه حق الضعيف الذي لا يملك القوة لحماية حقه، لترفعهم إلى علياء القيم السماوية النورانية الإنسانية العظيمة.

ويأتي ذكر هذه الوصايا الثلاث، كأثر مترتب على النعم العظيمة التي أنعم الله تعالى بها على الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، وذكرها الله تعالى في الآيات السابقة، من إيوائه وهدايته وإغنائه ﷺ، حيث يأمر الله جل جلاله الرسول

الأعظم الأكرم ﷺ أن يقابل تلك النعم العظيمة بما يليق بها من الشكر للمنعم سبحانه وتعالى، ويتمثل الشكر في الالتزام بالوصايا الثلاث، والوصايا.. هي كالتالي:

الوصية الأولى ـ قول الله سبحانه وتعالى ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

معاني مفردات الآية الشريفة المباركة

ٱلْيَتِيمَ: سبق توضيح المعنى.

تَقْهَرْ: تعني الغلبة.. مع التذليل، وتستخدم في كل واحد من المعنيين على حدة. وتعني أيضاً: الظلم، والتحقير، والعبوس.

أيها الأحبة الأعزاء: لا يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية من الأيتام، والأيتام يجب أن تتوافر لهم الرعاية الشاملة اللازمة على المدى القريب والبعيد، والعناية بهم من جميع الجهات، ويجب أن تتوفر لهم الحماية الكافية في المجتمع من الظلم والضياع بكل أشكاله، لأن اليتيم يحتاج فعلاً لهذه الرعاية والحماية، ويحتاج إلى المحبة والعطف والحنان أكثر من غيره، لكي يعوضه ذلك عن الفراغ الذي

يتركه فقدان الأب في حياته، وهذه مسؤولية المجتمع بكل أفراده ومؤسساته، فعليهم جميعاً أن ينهضوا بهذه المسؤولية الدينة والأخلاقية والإنسانية والاجتماعية خير قيام، ومن شأن ذلك القيام أن ينمي الجانب الروحي والأخلاقي في المجتمع، ويضمن الأمن والاستقرار فيه، مما يعود على المجتمع بكل أبنائه وشرائحه وطبقاته، بالنفع.. والتطور.. والازدهار، ويتجلى فيه الجمال المعنوي على أحسن صورة وخير وجه، مما يعطي انطباعا ممتازاً عن المجتمع، ويحسن صورته لدى أبنائه وزائريه ومراقبيه، ويرفع من معنويات أبنائه، ويشجعهم أكثر على فعل الخير والتنافس فيه.

قال الرسول الأعظم ﷺ: (من أنكر منكم قساوة قلبه، فليدن يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه، يلين قلبه بإذن الله.. إن لليتيم حقاً) (الوسائل ـ ج١٥ ـ ص١١١).

وفي كنز العمال ـ ج ٣ ـ ص ١٦٩ ـ الحديث ٦٠٠٢ ـ (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلين قلبك وتدرك حاجتك).

والآية الشريفة المباركة التي نحن بصدد البحث فيها، توجهنا إلى الأوجه الصحيحة للتعامل مع الأيتام في المجتمع، لكي ينشأوا النشأة الصحيحة، الخالية من العقد

النفسية الخطيرة التي تحملهم أو تؤدي بهم إلى عمل الجرائم والجنايات، ولكي يكونوا فاعلين في المجتمع، ويساهموا في تنميته وتطويره كأعضاء فاعلين أسوياء.

وبخصوص مخاطبة الرسول الأعظم ﷺ في الآية الشريفة المباركة: كأن الآية الشريفة المباركة تقول له: يا رسول الله، لقد كنت يتيماً وعانيت من ألم اليتم ومرارته، وقد آواك الله تعالى برحمته وكفلك عند جدك عبد المطلب ثم عند عمك أبي طالب، وخفف عنك ألم اليتم ومرارته حتى كأنك لم تشعر به، وأن عليك أن تشكر هذه النعمة العظيمة من الله تعالى عليك، وتؤدي حقها من الشكر بلسانك بالثناء اللائق على الله تعالى المنعم عليك، وأن تؤدي حقها بالشكر العملي، بأن تكون كثير الاهتمام بالأيتام، وأن تروي أرواحهم الظمأى من عطفك وحبك وحنانك عليهم، وأن لا يشعروا في حضرتك ووجودك بالضياع أو الخوف أو الحزن.

وكان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ حنوناً على الأيتام يجلسهم إلى جانبه ويمسح على رؤوسهم، ويكثر الاهتمام بهم ويبرهم أكثر من غيرهم، وكان ﷺ يوصي بهم خيراً.

في مجمع البيان عن أبي أوفى قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة

وأم لي أرملة، أطعمنا مما أطعمك الله، أعطاك الله مما عنده حتى ترضى، قال رسول الله ﷺ: ما أحسن ما قلت يا غلام، اذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا، فجاء بإحدى وعشرين تمرة، فقال: سبع لك، وسبع لأختك، وسبع لأمك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه، وقال: جبر الله يتمك.. وجعلك خلفاً من أبيك، وكان من أبناء المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: رأيتك يا معاذ.. وما صنعت، قال: رحمته، قال: لا يلي أحد منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه، إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكل شعرة سيئة ورفع له بكل شعرة درجة.

بيان مهم إلى كافة الآباء والأمهات: أيها الآباء والأمهات المحبون لأبنائهم، الحريصون عليهم، اعلموا بأنه من الواضح جداً إلى درجة المسلمات عند كافة العقلاء.. وإن تغافلوا عنه أو تجاهلوه، بأن كل طفل من أطفالنا الأعزاء الذين نفديهم بأرواحنا، يمكن أن يكون في يوم من الأيام في عداد الأيتام، وكل أب منا يريد أن يشعر بالأمن على أبنائه وضمان مستقبلهم، وهذا الشعور يفرض علينا الاهتمام بالأيتام والرعاية لهم، كما قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم).

الرعاية المؤسساتية الشاملة للأيتام: وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة تطوير الرعاية بالأيتام وعدم الاكتفاء بالأعمال الفردية أو الرعاية المادية فحسب، ففي المجتمعات الحديثة المتطورة والمعقدة جداً مثل المجتمعات التي نعيش في كنفها في الوقت الحاضر، يجب التفكير في الرعاية المؤسساتية الشاملة للأيتام، التي تخطط لتحسين أوضاع الأيتام من جميع الجهات وتوفير الرعاية الشاملة لهم على المدى القريب والبعيد، كي ينشأ الأيتام نشأة سوية في المجتمع المعاصر المتطور، ويكونوا قادرين على مواجهة تحدياته والمساهمة الفاعلة في بنائه وتطويره.

وقد انفتحت بعض المرجعيات الدينية الواعية باستحقاقات العصر وتحدياته، انفتحت على العمل المؤسساتي وطورته بجدارة، بما في ذلك رعاية شؤون الأيتام، كما هو الحال في لبنان وإيران، وينبغي الإقتداء بهم في ذلك من أجل مصلحة رعاية الأيتام الرعاية الشاملة وتأهلهم للحياة المستقرة الفاعلة على المدى القريب والبعيد.

دلالات الآية الشريفة المباركة

للآية الشريفة المباركة عدة دلالات رئيسية. منها الدلالات التالية:

الدلالة الأولى للآية الشريفة المباركة: توجيه المجتمع إلى إكرام اليتيم ورعايته والاهتمام به وعدم إهماله وتركه يكافح سطوة الأقدار لوحده منفرداً دون عون من الناس ومواساتهم له وتعاونهم معه، والنهي عن قهر اليتيم وكسر خاطره وإذلاله والإساءة إليه والقسوة عليه بالأقوال أو الأفعال، لأن ذلك عمل غير إنساني ومخالف للشريعة المقدسة، ومن شأنه أن يجرح مشاعر اليتيم، ويضاعف حزنه، ويجعله يشعر بالضياع في المجتمع، ويعقد شخصيته ويفقده الأمل والثقة بالناس والمجتمع الذي يعيش فيه، ويبذر في نفسه بذور الانحراف والجريمة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه. ثم أشار بإصبعيه: السبابة والوسطي، وقال: أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين). (كنز العمال ـ ج٣ ـ ص ١٦٨ ـ الحديث ٥٩٩٣).

وفيه ـ ص ١٧٠ ـ الحديث ٦٠٠٨ ـ (إن في الجنة داراً يقال لها دار الأفراح، لا يدخلها إلا من فرح يتامى المؤمنين).

وفي حديث آخر.. قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ:

(لا يلي أحدكم يتيماً فيحسن ولايته ويضع يده على رأسه، إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة، ومحا عنه بكل شعرة سيئة، ورفع له بكل شعرة درجة).

وفي حديث ثالث.. قال الرسول الأعظم ﷺ: (من مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمر به على يده نور يوم القيامة).

وفي حديث رابع.. قال الرسول الأعظم ﷺ: (إن اليتيم إذا بكى اهتز عرش الرحمن، فيقول الله لملائكته: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم. فيقول الله تعالى: يا ملائكتي، فإني أشهدكم أن لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة).

تنبيه تربوي وإنساني مهم: القرآن الكريم لم ينهَ عن نهر اليتيم وإنما نهى عن قهره، لأن اليتيم قد يحتاج إلى بعض النهر في تربيته وتأديبه، ولا ينبغي تدليله وترك تأديبه والإخلال بتربيته بذريعة أنه يتيم، فتأديب اليتيم واجب على من يكفله، وعليه أن يستخدم الوسائل الصحيحة المناسبة المطلوبة في التربية والتأديب بدون إفراط أو تفريط.

وتنبغي الإشارة هنا إلى خطرين يمكن أن يواجههما الطفل اليتيم.. وهما:

الخطر الأول: الإهمال وترك الرعاية وعدم إشباع الحاجات المادية والمعنوية التي يحتاجها في حياته، لكي يعيش حياة طبيعية سوية خالية من العقد والمشاكل.

الخطر الثاني: الإفراط في الحب والدلال، وهذا لا يقل عن الأول في خطورته.

الدلالة الثانية للآية الشريفة المباركة: المحافظة على أموال اليتيم وتنميتها بحرص ودقة وأمانة فائقة إذا كانت لليتيم ثروة، والنهي عن غلبته على ماله والذهاب بحقه.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: أكل مال اليتيم ـ الحديث ١ ـ ١٢٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (أوعد الله عز وجل في مال اليتيم بعقوبتين: إحداهما عقوبة الآخرة النار، وأما عقوبة الدنيا فقوله عز وجل: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١١] يعني ليخش إن أخلفه في ذريته كما صنع بهؤلاء اليتامى).

وفيه ـ باب: التجارة في مال اليتيم والقرض منه ـ الحديث ٢ ـ ص ١٣١ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام في مال اليتيم: (العامل به ضامن ولليتيم الربح).

وفيه ـ الحديث ٤ ـ ص ١٣١ ـ عن أسباط بن سالم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: أمرني أخي أن أسألك عن مال يتيم في حجره يتجر به؟ فقال: إن كان لأخيك مال يحيط بمال اليتيم إن تلف أو أصابه شيء غرمه له، وإلا فلا يتعرض لمال اليتيم).

وإذا كان اليتيم فقيراً يجب تلبية حاجاته المادية وعدم إهماله وتركه يتضور جوعاً ويعيش قسوة الحرمان.

في الكافي الشريف ـ ج٥ ـ باب: أكل مال اليتيم ـ الحديث ٢ ـ ص١٢٨ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (من عال يتيماً حتى ينقطع يتمه أو يستغني بنفسه أوجب الله عز وجل له الجنة، كما أوجب النار لمن أكل مال اليتيم).

وفي كنز العمال ـ ج٣ ـ ص ١٦٨ ـ الحديث ٥٩٩٦ ـ (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله).

وفيه ـ ص ١٦٨ ـ الحديث ٥٩٩٨ ـ (من آوى يتيماً أو يتيمة ثم صبر واحتسب كنت أنا وهو في الجنة كهاتين).

وفيه ـ ص ١٦٩ ـ الحديث ٦٠٠٠ ـ (من ضم يتيماً له أو لغيره حتى يغنيه الله عنه، وجبت له الجنة).

الدلالة الثالثة للآية الشريفة المباركة: إن اللطف بالأيتام والعطف عليهم والتعويض العاطفي لهم عما فقدوه من عطف الأب وحنانه، أهم من الاهتمام المادي بهم والإنفاق عليهم.

الدلالة الرابعة للآية الشريفة المباركة: التأكيد على القيم الإنسانية الرفيعة في معاملة القوي للضعيف على كافة الأصعدة، مثل معاملة الحاكم للمحكوم، والسيد للعبد، وصاحب العمل للعامل..... الخ.

في كنز العمال ـ ج٣ ـ ص ١٧٢ ـ الحديث ٦٠١٧ ـ (إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها، بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم).

وفيه ـ ص ١٧٣ ـ الحديث ٦٠١٩ ـ (ابغوني في الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم).

أقسام اليتم

ينقسم اليتم إلى قسمين.. وهما:

القسم الأول ـ اليتم المادي: ويسميه البعض باليتم الصوري، وهو فقد الطفل لأبيه قبل سن البلوغ، وهو خمس عشرة سنة للولد، وتسع سنين للبنت. ويمثل موت الأب خسارة فادحة للطفل، خاصة في الطفولة المتأخرة بعد أن يجتاز الطفل السنة السابعة من عمره، حيث يترك اليتم آثاراً سلبية كبيرة على حياته، تختلف باختلاف سن الطفل، وباختلاف مستوى إدراكه.. وفهمه.. وذكائه، وباختلاف جنسه ومستوى ارتباطه بوالده. ومن هذه الآثار السلبية التي يتركها اليتم على الطفل: فقدان الشهية واختلال برنامج النوم، مما يؤدي بدوره إلى مضاعفات صحية أخرى. ومنها: اختلال عملية التعليم والتخلف الدراسي، وضعف القابلية للعمل والدراسة والتخطيط، وقد تظهر عليه حالة يأس.. وتتغير رؤيته للأهداف والمقاصد، وتتغير لديه نوعية وحجم التوقعات، فقد تتهاوى عنده الأهداف السامية والمقاصد العليا، وقد تظهر لديه حالة إهمال للنظافة والشكل والمظهر، وقد تظهر لديه بعض العقد النفسية.. مثل: الحسد،

والخوف، والخجل، والحيرة، والذهول، والشعور بالحقارة والذنب، والإحساس بالقلق وانعدام الأمن، وقد تظهر عنده حالة الهيجان والغضب الشديد والميل إلى العنف والعصيان والتمرد والميل إلى الانتقام خاصة مع شعوره بالظلم، وقد تظهر عنده حالة الانطواء والشعور بالكآبة وعدم الانسجام مع المحيط واضطراب العلاقات مع الآخرين، وقد تظهر لديه حالة التكبر والتزوير والاحتيال ومرافقة المجموعات الشللية خاصة مع الإهمال.

كانت تلك بعض أهم الأعراض المرضية أو الإنحرافية التي قد تظهر على اليتيم في حالة الإهمال ونقص الرعاية والاهتمام، ذكرتها كنماذج لما يمكن أن يتعرض له اليتيم، لكي نتنبه لواجب الرعاية للأيتام الأعزاء والاهتمام بهم وعدم إهمالهم وتركهم للقدر يتقاذفهم بأمواجه ورياحه العاتية.

التصرف المطلوب مع اليتيم

وهي عدة تصرفات عدة.. أهمها التصرفات التالية:

التصرف الأول: ترك الطفل اليتيم يتصرف بتلقائية في حياته الاعتيادية، بغير إفراط أو تفريط، ومن ذلك: السماح له بالبكاء على والده وعدم منعه من ذلك أو حرمانه منه،

فالبكاء من شأنه أن يفرغ الشحنة الانفعالية في نفسه، ويشعره ببعض الراحة النفسية.

التصرف الثاني: معاملة اليتيم باللطف والحنان وإشعاره بالطمأنينة ومشاركته في حزنه ومنحه الثقة في نفسه، وعدم الإساءة إليه أو القسوة عليه بقول.. أو فعل، لأن ذلك عمل غير إنساني تنهى عنه الشريعة المقدسة، ومن شأنه أن يجرح مشاعر اليتيم ويضاعف حزنه، ويجعله يشعر بالضياع والهزيمة ويحقد على المجتمع وتتعقد نظرته إليه، وعلى المجتمع ومؤسساته رعاية اليتيم الرعاية المادية والمعنوية، والمحافظة على أمواله وتنميتها بكثير من الحرص والدقة، وعدم التفريط فيها أو أكلها ظلماً وبغير حق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

في البحار ـ ج٧٥ ـ باب: العشرة مع اليتيم ـ الحديث ١ ـ ص ٢ ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: (من أراد أن يدخله الله عز وجل في رحمته ويسكنه جنته، فليحسن خلقه، وليعطي النصفة من نفسه، وليرحم اليتيم، وليعن الضعيف، وليتواضع لله الذي خلقه).

التصرف الثالث: تعريفه بالوظائف الدينية والاجتماعية

التي يجب عليه القيام بها في جميع المجالات والتعامل مع الناس في مختلف الوجوه، وتذكيره بمآثر أبيه وتشجيعه على الإقتداء به وأن يحذو حذوه ويقتفي أثره في الخير والصلاح، فإن من شأن ذلك أن يشجعه على الصلاح وفعل الخير ويشجعه على البر بوالده، وينبغي السعي لزرع الأمل والنظرة المتفائلة للحياة في عقل اليتيم وقلبه وضميره، وتوجيهه نحو الخير والصلاح، والحذر من ذكر مثالب أبيه في وجهه، إن كانت لأبيه بعض المثالب والأخطاء، فإن من شأن ذكرها في وجهه أن يؤثر في نفسه تأثيراً سلبياً وتكون له انعكاسات سلبية في حياته وعلاقاته الاجتماعية، وإذا كانت على أبيه بعض الحقوق لله سبحانه وتعالى أو للناس وعلى الولد أن يؤدي تلك الحقوق، فينبغي تعريفه بذلك بصورة لا تسيء إلى أبيه، وتشجيعه على البر بأبيه وأداء ما عليه من الحقوق لله جل جلاله وللناس، وحمله على الاستغفار لأبيه وبره بالعمل الصالح نيابة عنه، فمما لا شك فيه أن وجود مثل هذه القيم وانتشارها في المجتمع تعطي انطباعا جميلاً عن المجتمع، ويساهم في رقيه واستقراره.

التصرف الرابع: تفهيمه حقيقة الموت، وأنه قدر محتوم على جميع المخلوقات من الله الخالق المالك لكل شيء، وأن الموت عودة إلى الله ذي الجلال والإكرام،

ولفت نظره إلى العودة المحمودة للمؤمنين وسعادتهم في الآخرة، وأن الله سبحانه وتعالى رحيماً بعباده المؤمنين ويحبهم، وأنهم يفرحون بلقاء الله الرحيم بعد الموت، وأن الله سبحانه وتعالى يجمع بين الزوج وزوجته وأولاده في الجنة يوم القيامة.

القسم الثاني - اليتم المعنوي: ويتمثل في الانقطاع المادي عن الآباء الروحانيين العظام من الأنبياء والأوصياء ﷺ، أو الانقطاع المعنوي بعدم الحضور الملكوتي عندهم وإن كان الشخص حاضراً عندهم بالحضور المادي.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ....﴾ [الأنفال: ٢٤].

لما يحييكم: يعني الحياة الإنسانية المعنوية والروحية الطيبة، وأن مصدر هذه الحياة الإنسانية المعنوية والروحية الطيبة، هو الارتباط بالله تعالى وعبادته والتخلق بأخلاقه، والإقتداء بالأنبياء العظام والأوصياء ﷺ، الذين تخلقوا بأخلاق الله سبحانه وتعالى، ويمثلون النماذج الإنسانية الكاملة، وهم مصدر النور والهداية في الأرض، وهم مصدر الحياة المعنوية الطيبة للإنسان في هذه الحياة، ومن ينقطع عن الله جل جلاله وعبادته وطاعته، وينقطع عن النماذج

الإنسانية العظيمة من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، يكون محروماً من الحياة الإنسانية المعنوية والروحية الطيبة قطعاً، ويكون كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٧٩].

وفي الحديث الشريف: قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، مخاطباً علي بن أبي طالب عليه السلام: (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة).

وكان الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله شديد الالتصاق بالناس والحرص على هدايتهم إلى الله تعالى وتعليمهم وتربيتهم التربية الإيمانية الصحيحة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وذلك الحرص من الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله بالناس، يعد جزءاً من الشكر العملي على نعمة الهداية.

قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.

حيث فرض الله تعالى على الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله شكر هذه النعمة بالحرص على الناس وتعليمهم وتربيتهم

وهدايته إلى الله تعالى، وعدم نهرهم عند السؤال والاستفسار عن شؤون دينهم ودنياهم.

قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

على أساس أن المراد من اليتم هو اليتم المعنوي.

يتم الشيعة والمسلمين في عصر الغيبة الكبرى: وكان حرص الأئمة عليهم السلام على تعليم الناس وهدايتهم إلى الله تعالى بعد الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، كحرص رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي عصر الغيبة الكبرى حصل بسبب الغيبة الانقطاع المادي بين الشيعة وإمامهم صاحب العصر والزمان (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء)، فيكون الشيعة والمسلمون عامة بمثابة الأيتام الذين تجب على العلماء الروحانيين والفقهاء رعايتهم الرعاية الخاصة الفائقة بهم، فيجب على الفقهاء والعلماء الروحانيين الرحمة بعامة المؤمنين والمسلمين والشفقة عليهم والتواضع لهم، والحرص على تعليمهم وتربيتهم وتهذيب أخلاقهم، ووصلهم ملكوتياً بآبائهم الروحانيين الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام والبر بهم، والحرص على رضاهم والإقتداء بهم وطاعتهم كطريق إلى الإنسانية ورضا الله جل جلاله والجنة، والحذر من مخالفتهم ومعصيتهم كطريق إلى البهيمية وغضب الله جل جلاله وسخطه والنار.

ومما لا شك فيه ولا ريب: فإن فضل رعاية اليتم الروحي والمعنوي وثوابه عند الله جل جلاله ونتائجه وانعكاساته في المجتمع، أعظم بما لا يقاس من فضل وثواب رعاية اليتيم الصوري ونتائجه وانعكاساته في المجتمع.

في البحار ج٢ ـ ص ٢ ـ الحديث ١: عن أبي محمد العسكري عليه السلام.. قال: (حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: أشد من يتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه، يتم.. يتيم انقطع عن إمامه ولا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا.. وهذا الجاهل بشريعتنا، المنقطع عن مشاهدتنا.. يتيم في حجره، ألا فمن هداه.. وأرشده.. وعلمه شريعتنا، كان معنا في الرفيق الأعلى).

وفيه ـ ج ٢ ـ ص٣ ـ الحديث ٣: عنه عليه السلام، قال حضرت امرأة عند الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام.. فقالت: إن لي والدة ضعيفة وقد لبس عليها في أمر صلاتها شيء، وقد بعثتني إليك أسألك، فأجابتها فاطمة عليها السلام عن ذلك، فثنت فأجابتها.. ثم ثلثت إلى أن عشرت فأجابت، ثم خجلت من كثرة السؤال.. فقالت: لا أشق عليك يا ابنة رسول الله، قالت فاطمة عليها السلام: هاتي وسلي عما بدا لك، أرأيت من

اكترى يوماً يصعد إلى سطح بحمل ثقيل، وكراه مائة ألف دينار يثقل عليه، فقالت: لا ، فقالت: اكتريت أنا لكل مسألة بأكثر من ملء ما بين الثرى إلى العرش لؤلؤا، فأحرى أن لا يثقل علي، سمعت أبي ﷺ. . يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدهم في إرشاد عباد الله، حتى يخلع على الواحد منهم ألف. . ألف حلة نور، ثم ينادي منادي ربنا ﷻ: أيها الكافلون لأيتام آل محمد ﷺ، الناعشون (الحاملون أو الرافعون) لهم عند انقطاعهم عن آبائهم الذين هم أئمتهم، هؤلاء تلامذتكم والأيتام الذين كفلتموهم ونعشتموهم عليهم فاخلعوا عليهم خلع العلوم في الدنيا، فيخلعون على كل واحد من أولئك الأيتام على قدر ما أخذوا عنهم من العلوم، حتى أن فيهم يعني الأيتام لمن يخلع عليه مائة ألف خلعة، وكذلك يخلع هؤلاء الأيتام على من تعلم منهم، ثم إن الله تعالى يقول: أعيدوا على هؤلاء العلماء الكافلون للأيتام حتى تتموا لهم خلعهم، وتضعفوها لهم، فيتم لهم ما كان لهم قبل أن يخلعوا عليهم، ويضاعف لهم، وكذلك من يليهم ممن خلع على من يليهم. وقالت فاطمة عليها السلام: يا أمة الله، إن سلكة من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف. . ألف مرة، وما فضل فإنه مشوب بالتنغيص والكدر.

وفيه ـ ج٢ ـ ص٣ ـ الحديث ٤ ـ عنه عليه السلام. . قال: قال الحسن بن علي عليه السلام: (فضل كافل يتيم آل محمد المنقطع عن مواليه، الناشب في رتبة الجهل، يخرجه من جهله ويوضح له ما اشتبه عليه على فضل كافل اليتيم يطعمه ويسقيه، كفضل الشمس على السهى) (السهى: اسم كوكب خفي في بنات النعش).

وفيه ـ ج٢ ـ ص٤ ـ الحديث ٥ ـ عنه عليه السلام. . قال: قال الحسين بن علي عليه السلام: (من كفل لنا يتيماً قطعته عنا محبتنا باستتارنا ـ وفي رواية: محنتنا ـ فواساه من علومنا التي سقطت إليه حتى أرشده. . وهداه، قال الله عز وجل: يا أيها العبد الكريم المواسي أنا أولى بالكرم منك، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علمه ألف. . ألف قصر، وضموا إليها ما يليق بها من سائر النعم).

وفيه ـ ج٢ ـ ص٤ ـ الحديث: ٦ ـ عنه عليه السلام. . قال: قال علي بن الحسين عليه الصلاة والسلام: (أوحى الله تعالى إلى موسى: حببني إلى خلقي وحبب خلقي إلي، قال: يا رب كيف أفعل؟ قال: ذكرهم آلائي ونعمائي ليحبوني، فلأن ترد آبقاً عن بابي أو ضالاً عن فنائي، أفضل لك من عبادة مائة سنة بصيام نهارها. . وقيام ليلها. قال موسى: ومن هذا العبد

الآبق منك؟ قال: العاصي المتمرد، قال: فمن الضال عن فنائك؟ قال: الجاهل بإمام زمانه تعرفه، والغائب عنه بعد ما عرفه، الجاهل بشريعة دينه، تعرفه شريعته وما يعبد به ربه، ويتوصل به إلى مرضاته).

واجبات الفقهاء والعلماء الروحانيين تجاه اليتم المعنوي:

وهذا الواجب الديني والإنساني الذي فرضه الله سبحانه وتعالى على الفقهاء والعلماء الروحانيين برعاية الأيتام المنقطعين عن إمام زمانهم بسبب الغيبة بمقتضى حكمة الرب جل وعلا، يتطلب من الفقهاء والعلماء الروحانيين، الحرص الشديد على هؤلاء الأيتام والاهتمام الكبير بهدايتهم وتعليمهم وتهذيبهم وإلحاقهم بآبائهم الأنبياء والأئمة الأطهار ﷺ، والتواضع الجم لهم، والرأفة والرحمة والشفقة بهم والحنان.. وعدم القسوة عليهم، وعدم إيذائهم نفسياً عند تعليمهم والإجابة على أسئلتهم واستفساراتهم، كما علمنا ربنا ذلك وأرشدنا إليه، وكما فعل الرسول الأعظم الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ، وسار الفقهاء الأعلام على هذا الهدي الإنساني الرشيد، وقد جسد الإمام الخميني (رحمه الله تعالى) هذا النهج الإنساني الرباني الرشيد في علاقته بالناس وحبه لهم وحرصه عليهم وثقته بهم والاعتماد عليهم في المهام... الخ، وأرى بأن هذا السلوك من الإمام الخميني

(رحمه الله تعالى) مع الناس، ينبع من مشربه العرفاني الصافي، حيث عظم الخالق في قلبه فصغرت نفسه في نفسه، فترجم ذلك في تواضعه الجم لله تعالى وللناس، وحبه لهم، وحرصه على هدايتهم وتربيتهم وتهذيبهم، وخدمة قضاياهم في مختلف الشؤون، وعدم التكبر عليهم بحال من الأحوال، حيث رأى بأن واجبه خدمتهم وهدايتهم، وسلوك أفضل السبل وأقربها إلى ذلك، وذلك في مقابل نماذج فقهية.. وفلسفية.. وعلمية.. جافة، حجبها علم الظاهر والقشور، عن رؤية حقيقة النفس وحقيقة الوجود، فحجبها عن خدمة الناس والقيام بوظيفة واجب هدايتهم وتعليمهم وتربيتهم وتهذيبهم وتعريفهم بخالقهم والطريق إليه، ومساعدتهم على سلوك الطريق بسهولة ويسر ومحبة وأنس، ومساعدتهم على النهوض في الحياة على كافة الأصعدة والميادين.

الوصية الثانية ـ قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

السَّائِلَ: من يسأل الناس عرضاً من أعراض الدنيا أو

متاعاً، أو يسأل عن أمرٍ من أمور الآخرة، لأنه يشعر بالحاجة والفقر إلى ما يسأل عنه.

تَنْهَرْ: تزجر أو ترد بغلظة وخشونة.

الآية الشريفة المباركة: تأمر الرسول الأعظم الأكرم ﷺ، بأن يحسن لقاء من قصده ليطلب منه مالا أو متاعاً أو أي مساعدة في أمر حياته، أو يسأله في أمر من أمور دينه، وتوصيه بأن يرفق بالسائل ويكرمه وأن لا يغلظ عليه في القول أو بفعل من الأفعال التي تؤذي مشاعره أو يعبس في وجهه، بل يرحب به أجمل ترحيب، ويستقبله أحسن استقبال، وأن يقوم بخدمته على أكمل وجه، ويقضي حوائجه على أحسن وجه وخيره، ويبذل الجهد في إغنائه فيما سأل وعدم رده يائساً.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ ـ حجر كبير أملس ـ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ ـ أجرد نقياً من التراب ـ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٥].

وقد جعل الله تعالى ذلك من الشكر العملي لنعمة الإيواء فيما إذا كان السائل يسأل عن شيء من عرض الدنيا ومتاعها، ومن الشكر العملي لنعمة الهداية، فيما إذا كان السائل يسأل عن أمر من أمور الآخرة.

في البحار ج ٩٦ ـ ص ١٦١ ـ الحديث ١ ـ عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام . . أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من عظمت عليه النعمة اشتدت مؤونة الناس عليه، فإن هو قام بمؤونتهم اجتلب زيادة النعمة عليه من الله، وإن هو لم يفعل فقد عرض النعمة لزوالها).

قال الإمام الصادق عليه السلام: (ما منع رسول الله صلى الله عليه وآله سائلاً قط، إن كان عنده أعطى، وإلا قال: يأتي الله به).

وروي عنه ﷺ.. أنه قال: (إذا أتاك سائل على فرس باسط يديه.. فقد وجب الحق ولو بشق تمرة).

وذلك لأن السائل عادة لا يصدر في سؤاله إلا عن حاجة وحرمان، وربما يعيش السائل في ظروف صعبة قاسية حرجة، مما يترك تأثيرات سلبية على نفسيته وتفكيره، ويكون في حاجة ماسة إلى المساعدة والتخفيف من معاناته وآلامه المادية والمعنوية، باتباع الأساليب الحلوة اللطيفة معه، والابتعاد عن أساليب الشدة والقسوة الجلفة، وهذا التوجيه الرباني العظيم دليل على إنسانية الإسلام، وتربيته لأبنائه على مراعاة القيم الإنسانية الراقية في المعاملة مع الضعفاء والناس عموماً، والابتعاد عن التجبر والتكبر والفحش والغلظة والقسوة والإساءة لإنسانية الإنسان وكرامته بأي حال من الأحوال، ومن شأن ذلك أن يرسخ دعائم الأمن والاستقرار والرقي في المجتمع، بينما تجاهل أصحاب الحاجات، وجعلهم يكافحون صعوبات الحياة منفردين، يؤدي إلى الإخلال بالأمن والاستقرار، وينشر العداوات والأحقاد في المجتمع ويغذيها بصورة شنيعة مما يهدد حاضره ومستقبله ويعيق حركة تقدمه وتطوره.

بعض المسائل المهمة في البحث

وهنا تجدر الإشارة إلى بعض المسائل المهمة في موضوع البحث.. وهي كالتالي:

المسألة الأولى ـ الحذر من إظهار الفقر: عن الفضل بن رمانة.. قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فذكرت له بعض حالي، فقال: يا جارية هاتي ذلك الكيس، هذه أربعمائة دينار وصلني بها أبو جعفر، فخذها وتفرج بها. قال: فقلت: لا والله جعلت فداك ما هذا دهري، ولكن أحببت أن تدعو الله لي. قال: فقال: إني سأفعل.. ولكن إياك أن تخبر الناس بكل حالك فتهون عليهم.

وعن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: يا بني ذقت الصبر وأكلت لحا الشجر فلم أجد شيئاً هو أمر من الفقر، فإن بليت به يوماً فلا تظهر الناس عليه فيستهينوك.. ولا ينفعوك بشيء.

المسألة الثانية ـ عدم السؤال إلا لضرورة: في البحار ج ٧٨ ـ باب: مواعظ أبي الحسن موسى عليه السلام ـ الحديث ٣١ ـ ص ٣٢٦ ـ عن الإمام الكاظم عليه السلام.. أنه قال: لا تصلح المسألة إلا في ثلاث: دم منقطع (وهو دم من ليس لقاتله مال حتى يؤدي دينه) أو غرم مثقل (الغرم: لزوم نائبة في المال من غير جناية) أو حاجة مدقعة (الدقعاء: التراب، والمدقع:

الذي لا يكون عنده ما يتقي به التراب). (الكنز ـ ج٦ ـ الحديث ١٦٧٠٥).

وفيه ج٩٦ ـ باب: ذم السؤال خصوصاً بالكف ومن المخالفين ـ رقم «٣٧» ص١٥٨. قال النبي ﷺ: (لو أن أحدكم يأخذ حبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل). وقال: (من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن سأل أعطاه الله، ومن فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر لا يسد أدناها شيء).

وفي كنز العمال ـ ج ٦ ـ ص ٤٩٧ ـ الحديث ١٦٧٠٢ ـ (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه).

وفيه ـ ص ٥٠٣ ـ الحديث ١٦٧٢٧ ـ (من استغنى أغناه الله، ومن استعف عفه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف) (ألحف السائل: ألح في الطلب).

وفيه ـ ص ٤٩٦ ـ الحديث ١٦٦٩٧ ـ (من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له الجنة).

وفي البحار ـ ج٧٧ ـ باب: مواعظ النبي ﷺ. ص ٦٢ ـ ٦٣

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ لأبي ذر رحمة الله عليه: (يا أبا ذر.. إياك والسؤال فإنه ذل حاضر، وفقر متعجلة، وفيه حساب يوم القيامة).

وفي غرر الحكم أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (السؤال يضعف لسان المتكلم، ويكسر قلب الشجاع، ويوقف الحر العزيز موقف العبد الذليل، ويذهب بهاء الوجه، ويمحق الرزق).

وفي كنز العمال ـ ص ٤٩٦ ـ الحديث ١٦٦٩٨ ـ (المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بداً).

المسألة الثالثة ـ طلب المعروف من أهله: في البحار ج ٩٦ ـ باب: ذم السؤال خصوصاً بالكف ومن المخالفين. ص ـ ١٦٠ قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (اطلبوا المعروف والفضل من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، والخلق كلهم عيال الله، وإن أحبهم إليه أنفعهم لخلقه، وأحسنهم صنيعاً إلى عياله، وإن الخير كثير وقليل فاعله).

وفيه.. قال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: (يا بني إذا نزل بك كلب الزمان وقحط الدهر، فعليك بذوي

الأصول الثابتة، والفروع النابتة من أهل الرحمة والإيثار والشفقة، فإنهم أقضى للحاجات، وأمضى لدفع الملمات، وإياك وطلب الفضل واكتساب الطساسيج (ربع دانق) والقراريط (نصف دانق - والدانق سدس الدرهم) من ذوي الأكف اليابسة، والوجوه العابسة، فإنهم إن أعطوا منوا، وإن منعوا أكدوا).

وفي كنز العمال - ج ٦ - ص ٥١٨ - الحديث ١٦٨٠١ - (اطلبوا الحوائج إلى ذوي الرحمة من أمتي ترزقوا وتنجحوا، فإن الله يقول: رحمتي في ذوي الرحمة من عبادي، ولا تطلبوا الحوائج عند القاسية قلوبهم، فلا ترزقوا ولا تنجحوا، فإن الله يقول: إن سخطي فيهم).

وفيه - ص ٥١٩ - الحديث ١٦٨٠٧ - (اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، فإن فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإن اللعنة تنزل عليهم. يا علي: إن الله خلق المعروف وخلق له أهلا فحببه إليهم وحبب إليهم فعاله ووجه إليهم طلابه كما وجه الماء في الأرض الجدبة لتحيا به ويحيا به أهلها. يا علي: إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة).

وفيه - ص ٥١٩ - ٥٢٠ - الحديث ١٦٨٠٨ - (إن الله

تعالى جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيي به أهلها، وإن الله تعالى جعل للمعروف أعداءً من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله وحظر عليهم إعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدبة ليهلكها ويهلك بها أهلها، وما يعفو أكثر).

المسألة الرابعة ـ لا ترد سائلاً: قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي البحار ج ٧٧ ـ باب: وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل ـ ص ٢٧٠ ـ قال عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: (يا كميل لا تردن سائلاً ولو بشق تمرة أو شطر عنب).

وفيه ج ٧٥ ـ باب: من منع مؤمناً شيئاً من عنده أو من عند غيره ـ الحديث ٢ ـ ص ١٧٣ ـ قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: (لا تخيب راجيك فيمقتك الله ويعاديك).

وفيه ـ الحديث ٤ ـ ص ١٧٤ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام.. قال: (أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر

عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله ﷻ يوم القيامة: مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار).

وفيه ـ الحديث ١٣ ـ ص ١٧٧ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام. . قال: (أيما مؤمن سأل أخاه المؤمن حاجة وهو يقدر على قضائها فرده عنها، سلط الله عليه شجاعاً في قبره، ينهش من أصابعه) (الشجاع: الحية).

الدروس التي نستفيدها من الوصيتين: الأولى.. والثانية

الدرس الأول: إن الإسلام يحث الإنسان المسلم على الوقوف عند حدود القيم الإنسانية واحترامها وتقديرها وعدم تخطيها أو تجاوزها، ويحثه على أن يتجاوز النظرة المادية في تعاملاته مع الإنسان.

في البحار ج٧٢ ـ ص ٤٤ ـ الحديث ٥٢ ـ عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام. . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(من استذل مؤمناً أو حقره لفقره أو قلة ذات يده، شهره الله تعالى يوم القيامة، ثم يفضحه).

وفيه ص٣٨ ـ الحديث ٣١ ـ عنه عليه السلام قال: من لقي فقيراً مسلماً فسلم عليه خلاف سلامه على الغني، لقي الله ﷻ يوم القيامة وهو عليه غضبان).

الدرس الثاني: إن الإسلام يحث الإنسان المسلم على حراسة الحدود والقيم الإسلامية والإنسانية والغيرة عليها، وأن يغضب للاعتداء عليها وعلى حقوق الإنسان، وأن يستميت في الدفاع عنها وعن المستضعفين من الناس وحماية مصالحهم العادلة المشروعة، وأن لا يفرط في شيء من ذلك، وأن يحرص على تحسين أوضاع المسلمين وتطويرها، بدون أن يفكر في المردود المادي، وإنما يفعل ذلك من أجل الله سبحانه وتعالى وفي سبيله ﷻ.

قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

الدرس الثالث: ينبغي أن يكون الفقهاء والعلماء الروحانيين، هم أكثر شرائح المجتمع حراسة للحدود والقيم الإسلامية والإنسانية العظيمة، وأكثرهم زهداً في الدنيا وتجسيداً للقيم الإسلامية الإنسانية العظيمة الراقية وتمثيلاً لها في حياتهم، وأكثر الناس قياماً بخدمة الناس والسعي في قضاء حوائجهم والحرص والأمانة على مصالحهم، من غير أن يلتفتوا إلى المردود المادي من وراء ذلك، ولسان حالهم يقول: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ومن أقبح الصور والأوضاع وأشنعها، أن ينتهك الفقيه

أو العالم الروحاني القيم الإنسانية العظيمة السامية، في سبيل الدراهم أو المناصب أو الوجاهة والسمعة، أو غير ذلك من فتات الدنيا الفانية وحطامها، لأنه المؤتمن من الله الرقيب سبحانه وتعالى ومن الناس عليها.

في البحار - ج ٢ - كتاب العلم - الحديث ٣٠ - ٣٤ - قال رسول الله ﷺ: (العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، ورجل تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة، رجل دعا عبداً إلى الله سبحانه فاستجاب له وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار بتركه علمه).

الدرس الرابع: إن الظروف الصعبة التي عاش الرسول الأعظم الأكرم ﷺ مخاضاتها القاسية في حياته، هي التي مكنته من تحسس آلام الناس ومعاناتهم في الحياة، ليعلم بشكل صحيح أوضاع المجتمع عموماً والفئات المحرومة بوجه خاص، ليستطيع معالجتها بصدق وإخلاص وكفاءة، ويقود الإنسانية جمعاء إلى شاطىء الأمان كقائد رباني فذ. أما الذي يرفل في نعومة العيش، والثراء الفاحش، والقصور الفخمة، وشعبه يعاني من شظف العيش والفقر

والحرمان، فإنه لن يستطيع أن يتفهم معاناة شعبه، ولن يهب أو يتحرك بصدق لمساعدة الفقراء والمحرومين.. ونجدتهم، لأنه باختصار شديد لا يشعر بهم ولا يعرف معاناتهم، ولا يحمل في عقله ولا في قلبه ولا في ضميره القيم الإنسانية التي تدفعه لتحسين أوضاعهم.. وتطويرها، وهؤلاء البشر ليسوا أهلاً للقيادة ولا يصلحون لها، ولن يستطيعوا توفير الأمن والاستقرار لمجتمعاتهم، ولن يستطيعوا دفع عجلة التقدم والازدهار والرخاء فيها، ولن يقدروا على غرس القيم المعنوية والروحية والمحافظة على الروح المعنوية والتطور القيمي في مجتمعاتهم، ولن يكون في مجتمعاتهم إلا المزيد من الخوف.. والفقر.. والحرمان.. والتخلف، وبالإضافة إلى محاسبة الشعوب والتاريخ لهم ولو المحاسبة الرمزية بمختلف الصور، فسوف يقفون بين يدي الله تعالى ليسألهم ويحاسبهم يوم القيامة عما استرعاهم عليه حساباً عسيراً بميزان دقيق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسوف يعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ومن هو كاذب ويحل عليه عذاب مقيم، وسوف يعلمون من له عقبى الدار.

قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ١٩ ـ ٢٥].

وفي نهج البلاغة. قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: (وإنما هي نفسي أروضها «أذللها» بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق «موضع الزلق أو الزلة»، ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز «الحرير» «كناية عن نعومة العيش، حيث كان الحاكم الأعلى ولو أراد التمتع بأي اللذائذ شاء لم يمنعه مانع»، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي «الجشع: الطمع وشدة الحرص» إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة «مدينة من اليمن خرج منها مسيلمة الكذاب» من لا طمع له في القرص «لا يجد الرغيف» ولا عهد له بالشبع «لشدة الفقر»، أو أبيت مبطاناً «ممتلئ البطن» وحولي بطون غرثى «جائعة» وأكباد حرى «أي عطشانة» أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش «خشونة العيش». فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها «التقاطها للقمامة» تكترش «تملأ كرشها» من أعلافها وتلهو عما يراد بها).

الوصية الثالثة ـ قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

معاني المفردات في الآية الشريفة المباركة

النعمة: الرفاهية وطيب العيش، أو ما أنعم به من رزق ومال وغيره، وهي تشمل النعم المادية والمعنوية، في الدين.. والدنيا. وجمعها: نعم. قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الشريفة المباركة: (حدث بما أعطاك الله، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك، وهداك).

التحديث: الإخبار، وهو أعم من أن يكون بالفعل.. أو القول.. أو الكتابة.. أو الإشارة، ولا شك أن التحدث بالفعال.. أحب إلى الله من التحدث بالمقال. قال أمير المؤمنين عليه السلام: (لابتذال نعم الله بالفعال، أحب إليه من ابتذالها بالمقال).

في هذه الآية الشريفة المباركة: أمر الله جل جلاله رسوله العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، أمره.. بأن يتحدث عن فنون نعم الله الكريم الجواد عليه، وأن يظهرها اعترافاً بفضل المنعم وشكره على ما أنعم، سواء كانت النعم مادية.. أو معنوية، من نعم الدنيا أو الدين أو الآخرة، وسواء جاءت النعمة في صورة ظاهرة مادية: كالمال.. والبنون، أو في صورة ظاهرة معنوية: كالنبوة.. والولاية.. والهداية، أو جاءت في صورة باطنة: كالبلاء.. والجهاد.. والشهادة، وعليه أن يستحث الخطى في الطريق إلى الله ذي الجلال والإكرام بالحمد والثناء، وإظهار النعمة وأداء حقها، فإن الله سبحانه وتعالى يحب أن يرى علي عبده آثار نعمته، ويرغب إليه أن يظهرها بلسان الحال.. أو المقال، فإن كتمها من غير مرجح إلهي، كان معادياً لنعم الله ومكذباً بها.

ومن جملة النعم التي أمر الله جل جلاله الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بالتحدث عنها وشكرها وإظهارها وأداء حقها، النعم التي ذكرها الله تعالى في الآيات السابقة، وهي نعمة الإيواء والهداية والإغناء، والنعم الموعود بها في الدنيا من الذكر الحسن الجميل إلى آخر الدنيا، وظهور دينه على الدين كله، رغم أنوف الكافرين والمشركين والمنافقين، والنعم

الموعد بها في الآخرة، وهي خير وأبقى من نعم الدنيا قاطبة.

وما لا شك فيه: أن شكر النعمة، سواء الشكر بالقول أو الشكر بالأفعال، فيه تخلق بأخلاق الله الغفور الشكور من جهة الإحسان لكل محسن، ومن جهة العطاء والجود والكرم، ومن يفعل ذلك فإنه بدون شك يكون حبيب الله العطوف الودود، لأن الله سبحانه وتعالى يحب المحسنين الذين يتخلقون بأخلاقه، ويحب كل صاحب يد بيضاء على الناس، ومن يجحدها ولم يشكرها ولم يؤد حقها إلى الناس، فهو بغيض الله سبحانه وتعالى، وصديق للشيطان الغوي الرجيم، وعدو للإنسان رفيق دربه في الحياة.

جاء في القرطبي ـ ج١٠ ـ ص ٧١٩٢ ـ قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: (من أعطي خيراً فلم ير عليه، سمي بغيض الله، معادياً لنعم الله).

وفي الكافي الشريف ـ ج٦ ـ ص٤٣٨ ـ الحديث ٢ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام. . قال: (إذا أنعم الله على عبد بنعمة فلم تظهر عليه، سمي بغيض الله، مكذباً بنعمة الله).

والأخبار التي تحث الإنسان على إظهار نعمة الله سبحانه وتعالى في الدين والدنيا ـ إذا لم يكن مانع أو مرجح إلهي ـ كثيرة جداً يصعب حصرها.

ملاحظات مهمة

وهنا تجدر الإشارة إلى بعض الملاحظات المهمة. . وهي كالتالي:

الملاحظة الأولى: إن الشكر باللسان، ينبغي أن يكمله البر بعباد الله وخدمتهم، لأن الناس عيال الله تعالى، وأحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم إلى عياله، وأن الشكر باللسان يفقد الكثير من قيمته الجوهرية إذا غاب الشكر العملي الذي يتمثل في خدمة الناس والعباد. وفي هذه الملاحظة يوجد درس في غاية الأهمية، وهو شكر نعمة تولي الوظائف العامة في المجتمع وأداء حقها، الذي يتمثل في إخلاص الموظف في عمله والقيام بواجباته خير قيام، وأن لا يفسد في عمله ولا يرتشي ولا يعطل مصالح الناس ولا يعصي الله في شيء من عمله، وأن يكون شديد الحرص على خدمة الناس وقضاء حوائجهم والقيام بمصالح الدين والمواطنين، ودفع الضرر عنهم، ومنع المنكرات الشرعية، والذين يفعلون ذلك هم المؤمنون حقاً ـ كما وصفهم الإمام الرضا عليه السلام ـ وقد سبق قبل قليل بيان أهمية ذلك وفضله والحث عليه في أحاديث الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وأحاديث أهل البيت عليهم السلام.

الملاحظة الثانية: إن الكثير من الناس ينفقون الكثير من

أموالهم في سبيل التفاخر والرياء والسمعة، ويقصرون كثيراً في الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهؤلاء يخسرون أموالهم، وهم من الأخسرين أعمالاً، فينبغي الحذر من ذلك وتجنبه، وهو خلاف شكر النعمة وأداء حقها.

الملاحظة الثالثة: إن البعض من المؤمنين وفقهم الله تعالى لطاعته ومرضاته، ينفقون في المستحبات الشرعية مثل الزيارة وإقامة العزاء على المعصومين عليهم السلام والهدايا وغير ذلك، ويقصرون في النفقات الواجبة مثل النفقة على الزوجة والأولاد والأقرباء، وأداء الحقوق الشرعية في أموالهم مثل الخمس والزكاة، وهذا خلاف الرشد العقلي والشرعي، فينبغي التنبه إليه وتركه، وتدارك الخطأ وأداء الحقوق الشرعية، وحقوق الأهل والعيال والعباد.

اختلاف التحدث باختلاف النعم واختلاف مقامات المتحدثين: ولما كان الخطاب والأمر بالتحديث، يعم الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله، وخلفاءه الأوصياء الراضين المرضيين عليهم السلام، وكافة المسلمين إلى يوم القيامة، فإن التحديث عن النعم وشكرها وأداء حقها، يكون مختلفاً باختلاف النعم المنعم بها على الإنسان واختلاف الأحوال والمتحدثين، ويأتي في مقدمة النعم التي ينبغي التحدث عنها

وإظهارها إلى الناس وأداء حقها بينهم، النعم المعنوية الأكثر أهمية. فبالنسبة للرسول الأعظم الأكرم ﷺ، فإن النبوة والرسالة والولاية والقرآن ونزول الملائكة والمعراج وإظهار الدين على الدين كله والشفاعة والمقام المحمود في يوم القيامة والدرجات العالية في الجنة والكرامات التي لا تخطر على بال أحد من البشر، ...... الخ، كلها من أعظم النعم التي أنعم الله الحي القيوم الوفي الواسع الودود بها عليه ﷺ، وهي أفضل النعم وأولاها بالتحدث وإظهارها وأداء حقها بين الناس. وأما بالنسبة إلى الخلفاء الأئمة الراضين المرضيين عليهم السلام، فإن لهم التحدث عن جميع ذلك على نحو الخلافة والتبعية، وليس على نحو الأصالة. وأما بالنسبة إلى المؤمنين غفر الله تعالى لهم جميعاً ورحمهم، فإن التحدث عن قبولهم لجميع ذلك واستفادتهم منها الاستفادة القصوى، يمثل أعظم النعم وأولاها بالتحدث وإظهارها وأداء حقها بين الناس، ثم تأتي بقية النعم حسب أهميتها وشرفها عند الله تعالى.

آثار التحدث بالنعم الإلهية على العبد والمجتمع

وللتحدث بالنعم الإلهية التي ينعم الله تعالى بها على العبد آثاره على العبد المتحدث بالنعمة، وآثاره في الحياة

الاجتماعية للناس، من هذه الآثار.. الآثار التالية:

الأثر الأول: إظهار الفقر والحاجة إلى الله سبحانه وتعالى رب العباد، والاعتراف بالفقر الوجودي في النفس، والالتزام العملي بمقتضاه، وأداء حق النعمة لله سبحانه وتعالى وللناس في المجتمع، والاعتراف بالفقر الوجودي في النفس، من لوازم العبودية والسلوك إلى الله رب العزة والجلال بقدم الفقر والحاجة إليه، في مقابل المتكبرين على الله العلي العظيم جبار السماوات والأرض، الذين يزعمون بأن النعم التي في أيديهم، هي من نتاج علمهم وعملهم وجهدهم بصورة مستقلة عن الله سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون علواً كبيراً، وبالتالي التخلي عن كل التزام تفرضه النعمة على العبد تجاه المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، والتخلي عن كل التزام تفرضه النعمة على العبد تجاه الناس الذين يشاركونه الحياة في المجتمع، وكانوا من وسائط وصول النعم إليه، ولهم حق فيها بحكم العقل والشرع.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وكما قال الله تعالى عن قارون: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن

قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨].

الأثر الثاني: إن التحدث بالنعمة والاعتراف بأنها من عند الله سبحانه وتعالى، والحرص على شكرها وأداء حقها بين الناس، هو من الخصال الحميدة وتدعو إلى اكتساب المزيد منها، وهي تدل على رجاحة العقل والحكمة وسلامة الفطرة، وتدفع المنعم عليه إلى التقدم في سلم العبودية ومعارج الكمال الإنساني، وتحمله على أداء حق النعمة إلى الناس بغير منٍّ ولا أذى، مما يكون له الأثر الايجابي الكبير على المنعم عليه في نفسه وعلى المجتمع، فيكون الفرد متواضعاً متعاوناً، يظهر عليه الوقار والسكينة والطمأنينة والثبات عند النقص وعند الشدائد، وعدم القلق أو الاضطراب أو اليأس والقنوط، ولا يشعر بعقد النقص كالتكبر أو الدونية، فإن الشكر يحصنه ضد كل ذلك، وتكون له قابلية أفضل في

مواجهة المشاكل الكبيرة.. وحلها، بينما الجاحد بالنعمة: يعيش القلق والشكوى والتأوه والجشع لا يشبع ولا يقتنع ولا يرضى ولو حصل على الدنيا كاملة، ويمارس السرقة والابتزاز والاعتداء على الحقوق العامة والخاصة، ولا ينفق شيئاً من أمواله في سبيل الله تعالى وخدمة المجتمع، وتظهر عليه سيماء الفقراء والمحرومين في الدنيا، وهو في الآخرة من الأخسرين أعمالاً.

هذه بعض آثار شكر النعمة وبعض آثار الجحود بها على مستوى الأفراد، وعلينا في ضوء ذلك أن نتصور الواقع والحالة التي يكون عليها المجتمع في حالة انتشار الشكر على النعمة، والواقع والحالة التي يكون عليها المجتمع في حالة انتشار الجحود والكفر والتكذيب بالنعمة وعدم شكرها، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

إن المجتمع في حالة انتشار الشكر على النعمة، سوف يسوده التعاون والاستقرار والعدل، ويكون مجتمعاً قوياً متماسكاً شديد البنيان جميل الصورة، تسوده القيم الإيجابية البناءة، حسن الوقع والتأثير في النفس، وتدفع المقارنة بين الماضي في غياب النعمة، وبين الحاضر بوجود النعمة، تدفع أبناءه إلى المزيد من العمل والسعي الحثيث إلى التقدم

والتطور والحصول على المزيد من النعم، ليؤدي بدوره إلى مزيد من الشكر، ثم إلى مزيد من التطور والتقدم والتمدن والاستقرار، وهكذا دواليك تتحرك عجلة التقدم في المجتمع بوتيرة متسارعة تسابق مع سرعة الزمن وتقدم الأحداث، وتجعل المجتمع في صدارة المجتمعات الإنسانية المتطورة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

الأثر الثالث: دفع الناس الآخرين إلى التأسي والإقتداء بصاحب النعمة وتحفيزهم على ذلك، مما يعود بالنفع على الناس في كمال إنسانيتهم وازدهارها، وبقربهم إلى الله تعالى ونعيم الآخرة، ويعود بالنفع على المجتمع بزيادة مآثر المجتمع وتقدمه وتطوره وازدهاره واستقراره، كما سبق توضيحه في الأثر الثاني.

الأثر الرابع: إن الحرص على إظهار أثر النعمة على

العبد، من شأنه أن يظهر الجانب المعنوي والجمالي في المجتمع، مثل: النظافة والجمال والفرح والسرور والرضا والعدل والاستقرار النفسي والطمأنينة والتطور المجتمعي والازدهار.. الخ، مما يعكس المستوى الحضاري المتقدم في المجتمع لكل زائر ومراقب، ومما لا شك فيه فإن هذا من شأنه أن يترك تأثيراً إيجابياً في الزائرين والمراقبين ويعطي انطباعا إيجابياً عن الإسلام ورسالته في الحياة وتأثيره في النفس والمجتمع، ويساهم بالتالي في تقريب الإسلام إلى أفهام الآخرين وقلوبهم وتقبلهم للدين واعتناقه، مما يساعد إيجابياً في هدايتهم ويسهل مهمة الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه الإسلامي الحنيف، وهو من الدعوة بلسان الحال، التي هي أبلغ حقيقة وصدقاً من المقال.

في الكافي ج٦ ـ ص ٤٣٨ ـ الحديث ١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام.. قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: (إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده).

وروي: أن شخصا كان جالساً عند النبي صلى الله عليه وآله، فرآه رث الثياب، فقال صلى الله عليه وآله: ألك مال؟ قال: نعم. فقال صلى الله عليه وآله.. له: (إذا آتاك الله مالاً فلير أثره عليك).

في الكافي الشريف ـ ج٦ ـ ص٤٤١ ـ الحديث١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (الثوب النظيف يكبت العدو).

وفيه ـ ج٦ ـ ص ٤٤٤ ـ الحديث ١٤ ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن وهو طهور للصلاة).

وفي كنز العمال ـ ج ٦ ـ ص٦٤٠ ـ الحديث ١٧١٧٤ ـ (إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه).

وفيه ـ ص ٦٤٠ ـ الحديث ١٧١٧٥ ـ (اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعوركم، واستاكوا.. وتزينوا.. وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون كذلك فزنت نساؤهم).

وفيه ـ ص ٦٤٣ ـ ٦٤٤ ـ الحديث ١٧١٩٦ ـ (يا عائشة: إن الله جميل يحب الجمال، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه).

وفيه ـ ص ٦٤٤ ـ الحديث ١٧١٩٧ ـ (كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير مخيلة «كبر» ولا تسرفوا، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده).

تم بحمد الله رب العالمين

مساء الخميس ـ ليلة الجمعة
بتاريخ:٤/رمضان/١٤٢٤هـ،
الموافق:٣٠/أكتوبر/٢٠٠٣م
مملكة البحرين ـ قرية النويدرات

الفهرس